الدراسات الأدبيّة والنقديّة المقارنة بين اللغات الشرقيّة

عبد الوهّاب عزّام أنموذجًا: مقاربة تحليليّة

د.عبّاس عبد الحليم عبّاس(*)

◆ تاريخ الاستلام: ٢٠٢٣/٠٣/١٦

◆ تاريخ القبول: ٢٠٢٣/٠٤/٢٥

ملخّص

تُعدّ الدراسات الأدبيّة المقارنة بين اللغات الشرقيّة جانبًا جوهريًّا في دراسات المثاقفة والتلاقح الثقافيّ والحضاريّ بين الأمم ... وربّما كان عبد الوهّاب عزّام أبرزَ أعلام النهضة الذين عنوا بهذا الجانب، فما هي ملامح المشروع الثقافيّ والحضاريّ الذي سعى عبد الوهّاب عزّام (١٨٩٤-١٩٥٩م) إلى تأسيسه؟ وهذا سؤال يقود إلى دراسة متكاملة لمنجز عزّام الكلّيّ، ويمثّل هدفًا أساسيًّا لها .

كما سيعنى الباحث هنا بالاستقصاء -قدر الإمكان- لما كتب عنه في منتصف القرن الماضي ونهاياته، وبدايات القرن الحالي، فتسعى الدراسة إلى أن تكون دراسة شموليّة عن عبد الوهاب عزام وجهوده الأدبيّة والفكريّة والنقديّة، ولا سيّما في حقل الدراسات الأدبيّة المقارنة بين اللغات والثقافات الشرقيّة،كونها تخصّ أممًا وشعوبًا تعايشت تحت مظلّة حضارةٍ إسلاميّة ذات مرجعيّات ثقافيّة وقيميّة واحدة.

(*) أستاذ مشارك، الجامعة العربيّة المفتوحة/الأردن a_abbas@aou.edu.jo

لذلك كلّه سيهتم البحث بالعمل على إيجاد الخيوط والروابط التي تربط بين أعماله بوصفها مشروعًا ثقافيًّا وحضاريًّا، طالما سعى عزّام لتحقيقه.

كلمات مفتاحيّة: الدراسات المقارنة- اللغات الشرقيّة- النقد الأدبيّ- التحليل- الحضارة الإسلاميّة

مقدّمة

انشغلت الدراسات النقديّة والأدبيّة المقارنة عبر ما يزيد على قرن من الزمان بالمقارنات بين الثقافتَين الشرقيّة والغربيّة، وقد اتخذ المقارنون من مظاهر اللقاء بين هاتَين الحضارتَين وآدابهما، ومظاهر التأثّر والتأثير شغلَهم الشاغل، حتّى بدا الخطاب النقديّ المقارن في نقدنا العربيّ وكأنّه خطاب موزّع بين هاتَين الثقافتَين وما أُنجز فيهما من أشكال أدبيّة فقط، على الرغم من أنّ الدراسات النقديّة والأدبيّة المقارنة بين حضارات الشرق والآداب الشرقيّة، بين اللغات العربيّة والفارسيّة والتركيّة والأرديّة وحتّى العبريّة، موجودة منذ نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، ولها نقّادها ورعاتها، وقد نُشر الكثير من هذه الأدبيّات في مجلات النهضة كالرسالة والثقافة والمقتطف وغيرها ...وهذه الدراسات لا تزال مستمرّة حتّى أيامنا هذه.

ولا شكّ أنّ التركيز على الدراسات المقارنة بين (الشرق والغرب) وغضّ النظر عمّا جرى ويجري من بحوث ودراسات مقارنة بين حضارات الشرق وثقافاته ولغاته، في جهود المعنيين بالدراسات المقارنة والبيئات البحثيّة الأكاديميّة، ولدى طلبة الدراسات العليا .. إنّما يعود لعوامل كثيرة أبرزها ذلك الصراع بين الثقافتَين العربيّة والغربيّة منذ الحقبة الاستعماريّة، وقيام الدول الغربيّة بتقسيم الوطن العربيّ، بين استعمار واحتلال ووصاية وانتداب، منذ أواخر العهد بالدولة العثمانيّة التي سمّتها الدول العظمى بـ (الرجل المريض) وحتّى ما بعد الحربَين العالميّتَين الأولى والثانية، وصولًا إلى ما مرّ به العالم من حقبة الحداثة وما بعدها، حتّى ظهور العولمة ومعطياتها ... ولا ننسى بطبيعة الحال ما نجم عن ذلك كلّه من عقدة النقص في (الذات) والشعور بتفوّق

(الآخر) التي شكّلت إحدى محاور الصراع الرئيسة بين (الشرق والغرب) وسيطرة دراسات ما بعد الكولونياليّة على المشهد الفكريّ والثقافيّ عمومًا، والأدبيّ والنقديّ على وجه الخصوص.

لقد أظهرت حملة نابليون بونابرت على مصر عند نهايات القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر (١٧٩٨-١٨٠٥) ما يعانيه العرب من تخلّف سياسيّ واجتماعيّ وعلميّ من جانب، وحرّكت فيهم روحَ اليقظة والالتفات إلى ما وصلت إليه أحوالهم من جانب آخر، حيث «مكّنت الحملة المصريّين من تعرّف مظاهر التفوّق الأوروبيّ الذي لم يألفوه في السابق، وبذلك ظهر الجدل حول ما هو عصريّ مستحدث، وما هو تقليديّ، فكان لذلك تأثير بالغ في بناء مفاهيم جديدة في المجتمع» (الجميّل، ١٩٩٧: ص ٣٠٨-٣٠٩).

فالشعور بالنقص الذي يعتري (الذات الحضاريّة) والتفوّق الذي يميّز (حضارة الآخر) دفع إلى تسليط الضوء على مسارَين اثنين:

«تمثّل أحدُهما بمحاولة تعزيز الذات الوطنيّة وتأكيد ثرائها الثقافيّ وامتدادها في الثقافات العالميّة، وكشف ملامح التأثّر العالميّ بتراثنا العربيّ على وجه العموم، فيما تمثّل الآخر في محاولة تأكيد سعة أفق الأدباء العرب، وعمق ثقافتهم عبر اطّلاعهم على أعمال أدبيّة عالميّة، وفي استيعابهم وتمثّلهم للتحوّلات الجذريّة في الأدب العالميّ، ولا سيما تجربة الحداثة وما بعدها، وعلاقة هذا كلّه برؤيا العالم من منظور ثقافيّ عربيّ» (عباس، ٢٠١٧: ص٨).

إنّ هذا البحث عن الحوار والمثاقفة والمقارنة في الاتجاه الآخر (بين الشرق والشرق) هو ما التفت إليه بكل جديّة وإخلاص مجموعةٌ من نقّاد النهضة ومفكّريها في وقت مبكّر من القرن الماضي، وعلى رأسهم عبد الوهاب عزام، الذي أنجز دراسات كثيرة ومتعمّقة في هذا المجال، وهي دراسات المثاقفة والمقارنة بين آداب الشعوب الشرقيّة ذاتها (العربيّة، والفارسيّة والتركيّة والأرديّة، والعبريّة أحيانًا) وهي دراسات وجدت من يعنى بها من المثقّفين والنقاد، منذ الثلاثينيّات من النصف الأوّل من القرن العشرين...

ولا تزال هذه العناية قائمة ومتواصلة ومستمرّة حتىّ هذه الأيّام.

لقد ظهرت بواكير الدراسات المقارنة بين اللغات والآداب الشرقيّة في زمن النهضة الأدبيّة في مصر، وذلك على صفحات مجلّات التأسيس والتنوير العربيّة آنذاك، وفي مقدّمتها مجلّة «الرسالة» التي أصدرها في العام ١٩٣٩ أحمد حسن الزيّارت (١٨٨٥-١٩٦٨) ومجلّة «الثقافة» التي صدرت في العام ١٩٣٩ أيضًا ورأس تحريرها أحمد أمين (١٨٨٦-١٩٥٤)، ومجلّة كليّة الآداب بجامعة القاهرة (التي كانت تُعرف باسم جامعة فؤاد الأوّل) ومجلّة المقتطف وغيرها...

والملاحظة أنّ أغلب الدراسات الأدبيّة المقارنة (بين الآداب الشرقيّة ذاتها) نُشرت على هيئة مقالات في هذه المجلّات، وندر ظهورها في كتب ومؤلّفات مستقلّة في حينه، في حين أنّ دراسات الأدب المقارن العامّة، وتلك التي تقارن بين أدبنا العربيّ والآداب الغربيّة خصّص لها مؤلّفوها كتبًا مستقلّة في الغالب الأعم، وعُنيت بها الخطط الدراسيّة داخل أسوار الجامعات، فضلًا عمّا لقيته من عناية واهتمام في المؤتمرات والملتقيات الدوليّة المعنيّة بالدراسات المقارنة، أضف إلى ذلك ظهور العديد من الجمعيّات والمنظّمات المتخصّصة ... وربّما هذه الأسباب كلّها مجتمعة غطّت على الدراسات المقارنة بين الآداب المشرقيّة، وكما تعلمون فالكتب يجري تداولها وانتقالها وتكرار طباعتها، في حين تبقى المقالات المنشورة في المجلّات، كالرسالة وغيرها محدودة الانتشار، ولا سيّما في ذلك الوقت الذي لم يكن من السهل فيه انتشار هذه المجلات على مستوى الأقطار العربيّة جمعاء، كما هو الحال في أيّامنا هذه بما يتوافر فيها من إمكانات تقنيّة جبارة.

وربما كان من المفيد هنا أن أضع القارئ أمام قائمة مستقصية إلى حدّ ما للبحوث والدراسات في مجال المقارنة بين الآداب الشرقيّة للوقوف على حجم هذا الحقل المعرفيّ وأهميته، وهي دراسات جاءت على النحو الآتي:

١- بعضها على هيئة مقالات مستقلّة في مجلّات ومواقع على الشابكة.

٢- وبعضها فصول في كتب.

٣- وبعض ثالث ورد في دراسات مقارنة عامّة أو ضمن دراسات عُنيت بمقارنات متنوّعة بين الأدبَين العربيّ والغربيّ.

٤- وبعضها الأخير في كتب خُصّصت لهذه الدراسات.

عبد الوهّاب عزّام: النشأة والحياة العلميّة.

في قرية من قرى الجيزة وُلد عبد الوهّاب عزّام في العام ١٨٩٤، لأسرة يتصل نسبُها بقبيلة قضاعة القحطانيّة، نشأ نشأة علميّة رصينة، حفظ القرآن الكريم في الكتاتيب، وتركّزت ثقافته على الجوانب اللغويّة والدينيّة، أكبّ على كتب التاريخ الإسلاميّ، ودخل مدرسة القضاء الشرعيّ بالقاهرة، لمدّة تسع سنوات، تعلّم فيها العلوم العصريّة وشيئًا من القانون، فحصل على الشهادة العالميّة في العام ١٩٢٠، وعُيّن فيها أستاذًا، وبعد ذلك دخل الجامعة المصريّة القديمة، وتخرّج فيها في العام ١٩٢٣ في الآداب والفلسفة، واختيرَ إمامًا ومستشارًا للشؤون الدينيّة بالسفارة المصريّة بلندن، وهناك هالَهُ ما يكتب المستشرقون عن الإسلام والمسلمين، فقرّر أن يتبحّر في الدراسات الشرقيّة والإسلاميّة، فالتحق بمدرسة اللغات الشرقيّة بلندن، وحصل منها على الماجستير في الأدب الفارسيّ في العام ١٩٢٧، وكان موضوعه (التصوّف عند فريد الدين العطّار).

عاد عزّام من لندن يعمل مدرّسًا بكليّة الآداب بجامعة القاهرة، وحصل على درجة الدكتوراه عن (الشاهنامة) للفردوسي في العام ١٩٣٢ وكان يوم مناقشته يومًا مشهودًا من أيّام الجامعة، وعيدًا من أعيادها على حدّ تعبير طه حسين، ثمّ اخذ عزّام يتدرّج في سلّم الترقّي الجامعيّ حتى صار أستاذًا في العام ١٩٣٩، ثمّ رئيسًا لقسم اللغة العربيّة واللغات الشرقيّة، ثمّ عميدًا لكليّة الآداب في العام ١٩٤٥، وكان مشرفًا على طائفة من الطلّاب في قسم الماجستير والدراسات العليا للدكتوراه، ويضيف زكي المحاسني بالقول «وكنت أحد تلاميذه، فتمرّست بمعرفته، وأدركت الأغوار البعيدة في نبل أخلاقه، وعدل أحكامه، وحبّه للعروبة في تراثها وأصولها... وكان إلى ذلك أستاذًا جامعيًّا عطوفًا، دقيقًا في البحث والإرشاد في موضوع الرسائل الخاصّة بدرجة الماجستير ودرجة الدكتوراه،

يشرف على رسائل أصحابها بدقّة وعناية، ويهديهم السبيل في مصادرها وتأليفها، ويعيد ويبدي النظر فيها، والتوضيح لمناهجها والتسديد لخطى أصحابها.. وكان زائره من تلاميذه أو سواهم يحسّ أنّه في زيارة صديق حميم أو قريب أو أثير، وينصرف بتوديع كريم يملأ القلبَ أملًا في الرجوع» (المحاسني، ١٩٦٨: ص١٥).

وقد مزج عبد الوهّاب عزّام في حياته بين الأدب والسياسة، فبعد أن وصل إلى ذروة عمله الجامعيّ، بدأ مشوار العمل السياسيّ، فقد عيّنته الحكومة المصريّة سفيرًا لمصر في المملكة العربيّة السعوديّة في العام ١٩٤٧ بدرجة وزير مفوض، ثمّ عُيِّنَ سفيرًا لمصر في باكستان في العام ١٩٥٠، ثمّ عاد سفيرًا للحكومة المصريّة في كلّ من السعوديّة واليمن حتى تقاعد في العام ١٩٥٦.

وجدير بالذكر أنّ الحكومة السعوديّة رشّحته لتأسيس أوّل جامعة فيها، وهي جامعة الرياض (المعروفة بجامعة الملك سعود حاليًّا) وظلّ على رأس إدارتها حتّى تاريخ وفاته في العام ١٩٥٩.

وقد عرف عزّام بحبّه الشديد لتراثه وعروبته، وإخلاصه العميق لثقافته العربيّة، ويقول تلميذه محمّد زكي المحاسني «ولا أحسب كاتبًا عربيًّا على ضفاف النيل تمثّلت في حياته وآثاره خصائص العروبة وطوابعها كما تمثّلت في حياة عزّام وفي جهاده واتجاهه، كما تجلّت في سلوكه وثقافته، وفي رحلاته وصوفيّته الإسلاميّة التي كانت وراء سعيه وتقواه.. وإيمانه بالله والعروبة، وما جاءَت به الدعوة الإسلاميّة لخير الأمّة العربيّة، وبنائها على العلم والأخلاق ومكارم الإنسانيّة» (م.ن: ص٢١).

وإلى جانب حبّه الشديد للغته العربيّة وتراثها الممتدّ فقد جمع عزام إلى جانب ذلك عناية خاصّة باللغات الأخرى، شرقيّة وغربيّة، حيث أجاد من تلك اللغات الفارسيّة والتركيّة والأرديّة، وكان على إلمام جيّد بالإيطاليّة والألمانيّة، ويقول الدكتور يوسف بكّار في سياق الحديث عن معرفة عزّام باللغات الشرقيّة، «وكانت لعبد الوهّاب عزّام، لمعرفته اللغات الشرقيّة الثلاث: الفارسيّة والتركيّة والأرديّة، وتخصّصه في الأدب الفارسيّ تحديدًا، ريادةٌ علميّة وتعليميّة منظّمة، وجهود بارزة، تحقيقًا وتأليفًا وترجمةً، في

زمانه، وبعده بقليل، الذي كانت معرفتنا فيه باللغات الشرقيّة وآدابها قليلة محدودة، أو كما يقول طه حسين مثلًا «وقد كان علمنا بشؤون الأدب الإيرانيّ ضيّقًا محدود الوسائل لا نستطيع أن نتلمّسه عند أهله، وإنّما نتلمّسه عند الإنجليز والفرنسيّين والألمان الذين سبقونا -مع الأسف- إلى العلم بهذا الأدب وتذوّقه» (بكّار، ٢٠١٩: ص٥٢)

وإذا انتقلنا إلى سمات وخصائص في شخصيّة عبد الوهّاب عزّام ومسلكه في الحياة، فلا بدّ من الوقوف عند تصوّفه، الذي اكتسبه من تعمّقه في القراءة حول المتصوّفة وما أبدعوه من أدب، وما خلّفوه من مسالك روحيّه عرفانيّة كان لها أبعد الأثر في تبنّيه مسلكهم ومنهج سيرهم، «وقد يعود اهتمامه بالتصوّف الإسلاميّ إلى العام ١٩٣٣، إذ كتب مقالة (التصوف في الشعر الاسلاميّ) في صحيفة الجامعة المصريّة، وربّما كان ذلك تمهيدًا لاهتمامه بعلمَين كبيرَين من أعلام التصوّف الإيرانيّ: الأوّل فريد الدين العطّار الذي ألّف فيه (التصوف وفريد الدين العطار) القاهرة ١٩٤٥، وهو أصل رسالته للماجستير في الجامعة المصريّة، والآخر، مولانا جلال الدين الرومي صاحب (المثنوي) الذي خلف فيه كتابه (فصول من المثنوي) الذي جمع فيه سلسلة المقالات التي كتبها عن مولانا ومثنويّه في مجلّة الثقافة المصريّة في العام ١٩٤٢» (م.ن، ص٥٤)

إنتاجه العلميّ

هذه أبرز جوانب حياة عبد الوهّاب عزّام ومحطّاتها، وبخاصّة ما يتعلّق منها بحياته العلميّة والفكريّة والأكاديميّة، وربّما لا تكتمل الصورة في إطارها إلّا بالحديث عن (إنتاجه العلميّ) أعماله ومؤلّفاته، التي يمكن تقسيمها على النحو الآتي (مع ملاحظة أنّ ما أثبتّه هنا هو الكتب فقط، أمّا المقالات التي لم تجمع في كتب فقد أشرتُ إليها وأفدت منها في مواضع أخرى).

مؤلّفات أدبيّة ونقديّة:

- مذكّرات في تاريخ الأمم الإسلاميّة ١٩٣٢
- ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام ١٩٣٦
- اخلاق القرآن ١٩٣٩
- مجالس السلطان الغوري ١٩٣٩
- رحلات عبد الوهّاب عزّام ١٩٣٩
- الأوابد ١٩٤٢
- مهد العرب ١٩٤٦
- موقع عكاظ ١٩٤٨
- أمم حائرة ١٩٤٩
- الشوارد ١٩٥٣
- النفحات ١٩٥٣
- المعتمد بن عباد ١٩٥٩

مؤلّفات في التحقيق

- رضا شاه بهلوي: نهضة إيران الحديثة ١٩٣٩
- كليلة ودمنة ١٩٤١
- سياحتنامة: مصر ١٩٤٢
- ديوان أبي الطيّب المتنبي ١٩٤٤
- كتاب الورقة ١٩٤٥
- رسائل الصاحب بن عباد ١٩٤٧

مؤلّفات في الترجمة

- فصول من المثنوي لجلال الدين الرومي ١٩٤٦
- مجمع النوادر:جهار مقالة ١٩٤٩

- بيام مشرق لمحمّد إقبال ١٩٥١
- ضرب الكليم ١٩٥٢
- ديوان الأسرار والرموز ١٩٥٣
- اتحاد المسلمين ١٩٥٤

مؤلّفات في الدراسات المقارنة بين الآداب الشرقية

- الشاهنامة ١٩٣٠
- في الأدب الشرقيّ ١٩٤٥
- التصوّف وفريد الدين العطّار ١٩٤٥
- الصلات بين العرب والفرس وآدابهما في الجاهليّة والإسلام ١٩٤٨
- محمّد إقبال (سيرته وفلسفته وشعره) ١٩٥١
- التوجيه الأدبيّ ١٩٥٢

مؤلّفات كَتبَ لها (مراجعة أوتصديرًا أو تقديمًا)

- رضا شاه بهلوي: نهضة إيران الحديثة، لأحمد محمود الساداتي (تصدير عزام) ١٩٣٩
- سفر نامة، ناصر خسرو. ترجمة: يحيى الخشاب (تصدير عزام) ١٩٤٣
- تاريخ إيران في عهد الساسانيّين،آرثر كريستنسن، ترجمة يحيى الخشاب (مراجعة عزّام) ١٩٤٦

جهوده المقارنة بين الآداب الشرقيّة

عند الحديث عن جهود عبد الوهّاب عزّام في مجال البحث الأدبيّ والنقديّ واللغويّ المقارن بين الآداب الشرقيّة (العربيّة – والفارسيّة – والتركيّة – والأرديّة) فنحن لا ندرس أعمالًا أو كتبًا بعينها لعزّام، بل إنّنا ندرس نظريّة في الحوار الحضاريّ وفكر المثاقفة المفضي إلى وعي أدبيّ عميق عند عزّام بضرورة البحث في جوهر الوحدة والتلاقي بين

أمم الشرق وحضاراتها، ولا سيّما تلك التي مثّلت معطيات الحضارة الإسلاميّة وروحها المنفتحة، وآفاقها الممتدّة عوامل مشتركة بين هذه الثقافات.

إنّ هذا المشروع الثقافيّ والفكريّ لعبد الوهّاب عزّام تتجلّى مظاهره في كلّ ما أنجز من أعمال في التأليف والتحقيق والترجمة، وحتّى في منجزه الشعريّ وقد كان في مشروعه هذا رائدًا ومكتشفًا، على الرغم من أنّ ريادته في جانب الدراسات المقارنة بين الثقافات والآداب الشرقيّة هي (ريادة منسيّة) على حدّ تعبير يوسف بكّار الذي لفت الانتباه إلى كثير من هذه الريادات من خلال كتابه القيمّ (ريادات منسيّة في الأدب العربيّ المقارن) ٢٠١٩. والحقيقة أنّ الاشتغال بهذا الجانب من الدراسات والبحوث المقارنة بين (الآداب الشرقيّة) عانى من هذا النسيان أو الإغفال بوجه عام، لأسباب عديدة مرّ ذكرها سابقًا، وقد آن الأوان لإبراز تلك الجهود وإخراجها للدارسين والباحثين المعنيّين بهذه المجالات من البحث والدراسة، وفي مقدّمة هذه الجهود (المشروع الفكريّ والأدبيّ) لعبد الوهّاب عزّام كما أحبّ أن أسمّيه، وفي هذا السياق، وللوقوف على حجم هذا (المشروع) وقيمته الحضاريّة ينبغي علينا أن نتناول العناوين الفرعيّة الآتية:

- معرفة عزّام باللغات والثقافات الأخرى
- إعجاب عزّام برموز الإبداع الأدبيّ في الثقافات الشرقيّة لمحمّد إقبال.. الخ
- التصوّف وشعراؤه عند عزّام
- عناية عزام بالشاهنامة
- نظراته في (العلاقات اللغوية) بين الثقافات الشرقيّة

شغف عبد الوهّاب عزّام باللغات والثقافات الأخرى، ومعرفته بها.

أتقن عبد الوهّاب عزّام عدّة لغات شرقيّة وغربيّة، وكان للفارسيّة والتركيّة نصيب الأسد من هذه اللغات وقد كان حبّه لتعلّم اللغات مركوزًا في نفسه وعقله منذ الصغر،

يقول في هذا السياق: «كنت أسمع عن الشهنامة كما أسمع عن القصص الكبرى الأخرى، وكنت أمنّي نفسي قراءَة الكتاب، وأشتطّ في التأمل أحيانًا فأمنّيها ترجمته حين يتاح لي علم (اللغة الفارسيّة). وكنت أتمنّى درس الفارسيّة في حداثتي، أمنية نشأت في نفسي بعد أن أمضيت سنين في درس (التركيّة) أو محاولة درسها. وأحسبني شرعت ألتقط بعض الألفاظ التركيّة من الأفواه ومن الكتب وأنا في سنّ (الرابعة عشرة) (عزّام، الشاهنامة، ١٩٣٩، ص٣) ولا شكّ أنّ شغفه بتعلّم اللغات التركيّة والفارسيّة وهو في هذه السنّ المبكّرة يشير بوضوح إلى نزعته القويّة لمعرفة هاتَين الثقافتَين ودراسة آدابهما، بل معرفة ثقافات أخرى تعينه في عطشه المعرفيّ، وحبّه للغات الأصليّة لمرجعيّات العمل الذي يقرأه أو يدرسه، فعلى سبيل المثال تصدّى عزّام لشعر محمّد إقبال وأعماله، ومن المؤكّد وممّا لا شكّ فيه أنّ قراءَة هذا الشاعر الكبير «والحديث عنه وعن تراثه الفكريّ والأدبيّ، يحتاج إلى التسلّح بأدوات أوّلها المعرفة باللغات الأرديّة والفارسيّة والإنجليزيّة، وإلى أدوات معرفيّة في الفلسفة والشعر والسياسة والعقيدة، لأنّ الساحات التي خاض فيها إقبال معاركَه وزرع فيها إنتاجه، وتبدّت عبقريته من خلالها هي كلّ تلك الساحات» مجتمعة (قماري، ٢٠١٦: ص٢) وهذا ما صنعه عزّام بالفعل، إذ أتقن الفارسيّة والتركيّة والأرديّة معًا. «وكان لمعرفته اللغات الشرقيّة الثلاث الفارسيّة والتركيّة والأرديّة وتخصّصه في الأدب الفارسيّ تحديدًا، ريادة علميّة وتعليميّة منظّمة، وجهود بارزة (تحقيقًا وتأليفًا وترجمة) في زمانه -وبعد قليل- الذي كانت معرفتنا فيه باللغات الشرقيّة وآدابها قليلة محدودة، أو كما قال طه حسين مثلًا: وقد كان علمنا بشؤون الأدب الإيراني ضيّقًا محدود الوسائل لا نستطيع أن نلتسمه عند أهله، وإنّما نلتمسه عند الإنجليز والفرنسيّين والألمان الذين سبقونا -مع الأسف- إلى العلم بهذا الأدب وتذوّقه. وحسب الرجل شهادة أستاذه وزميله وصديقه طه حسين في جهوده كافة» (بكّار، ٢٠١٩: ص٥٢).

وهو يستحقّ هذه الشهادة لما أبداه من تميّز في تعلّمه لهذه اللغات وجهوده في دراسة ثقافاتها وآدابها، حتى غدت ترجماته لأعلام من هذه اللغات من أدقّ

الترجمات وأكثرها قيمة أدبيّة وفنيّة بشهادة الباحثين والدارسين المتخصّصين في آداب تلك اللغات.

ويتضح لمن يقرأ مؤلّفات عبد الوهّاب عزّام كيف يحرص هذا الباحث الناقد الرصين على توضيح أيّ مسألة لغويّة أو أدبيّة تحتاج إلى تعليق بشأن معنى كلمة أو عبارة في لغة أخرى، فنجده يعود إلى تلك اللغة من (اللغات الشرقيّة أو الأوروبيّة) ويبحث فيها ليثبت ما وصل إليه من فهم دقيق لهذه الكلمة أو العبارة في متن كتابه أو حاشيه من ذلك على سبيل المثال شرحه لكلمة (عنعنات) التركيّة، يقول: «يستعمل كتّاب الترك كلمة عنعنات في ترجمة الكلمة الأوروبيّة (Tradition) وهي مأخوذة من اصطلاح المحدثين، فهم يسمون الحديث الذي في سنده: عن فلان عن فلان... الخ بالحديث المعنعن» (عزام، ١٩٣٢: ص ٢٢) وقد أشار طه حسين إلى معرفة عزّام بالفارسيّة والتركيّة والأرديّة والإنجليزيّة والفرنسيّة واليونانيّة والرومانيّة.

معرفته بالفارسيّة:

إنّ دراسة عزام للغات الشرقيّة، وعلى رأسها اللغة الفارسيّة قدّمت له فوائد عظيمة في دراساته وبحوثه وترجماته المقارنة، ثمّ قدّمت هذه البحوث فوائد متتالية للباحثين والمبدعين من الكتّاب والشعراء الذين استلهموا من الأدب الفارسيّ ما استلهموا، بفضل ما قدّمه لهم عبد الوهّاب عزّام من أعمال وترجمات لعيون الأدب الفارسيّ ومشاهير أدبائه، فعلى سبيل المثال، يذكر الشاعر والكاتب المعروف نجيب إبراهيم الكيلانيّ (١٩٩٥-١٩٣١) الأثرَ الكبير الذي ناله من قراءَته لشعر محمّد إقبال، وذلك من طريق ترجمة عزّام التي عثر عليها صدفة، يروي الكيلاني أنّه كان ذات يوم في سجن أسيوط «ورأى في يد أحد الإخوان ديوان (ضرب الكليم) لإقبال، المترجم باللغة العربيّة بيد الدكتور عبد الوهّاب عزّام، واستعار هذا الديوان، وبدأ يقرأ فيه ويتأمّل في أفكاره وفلسفته وأسلوبه، ونظرته تجاه أدب ينهض بالمسلمين من غفلتهم ويؤدّي بهم الى المسايرة مع ما تحتاج إليه الأمّة المسلمة، وكان اكتشافي لإقبال أهمّ أحداث حياتي

الأدبيّة» (الكيلاني، ١٩٨٥: ص٢٢٦)، وتشير الباحثة سلمى أنجم كيف أخذ الكيلاني بسبب هذه الترجمة المهمّة والمتقنة «يبحث عن كلّ ما كُتب عن إقبال باللغة العربيّة، وكان خيرَ ما وجده مؤلّفات الدكتور عبد الوهّاب عزّام المترجمة» (أنجم، ٢٠١٧: ص١٥).

والحقيقة أنّ ترجمة إقبال كما يشهد بذلك العديد من النقّاد والباحثين لا تؤتي أكلها الحقيقية إلّا من خلال مترجمٍ يتقن الفارسيّة والأرديّة والإنجليزيّة معًا؛ لأنّ المضامين الشعريّة التي نجدها في شعره تحتاج إلى معرفة بهذه اللغات وهذه الثقافات مجتمعة. محمّد إقبال شاعر عميق الثقافة، متعدّد المشارب والمرجعيّات الفكريّة والمعرفيّة، وهو أشبه بالشاعر ت. س إليوت في هذا الجانب.

لقد امتدح طه حسين مقدرة عبد الوهّاب عزّام وكفاءَته في اللغة الفارسيّة ومعرفته بدقائقها وآدابها، وطالما أشار إلى أنّ هذه المعرفة بالفارسيّة وفّرت لنا مصدرًا مهمًّا في ثقافتنا العربيّة يمثّل نافذةً واسعة نطلّ من خلالها على ثقافة الفرس وآدابهم، وقد كفانا هذا مؤونةَ الرجوع إلى الثقافة الفارسيّة من طريق مترجمين غربيّين، إنجليز وفرنسيّين وغيرهم، وفي هذا الصدد يذكر العميد أنّنا «قد كان علمنا بشؤون الأدب الإيرانيّ ضيّقًا محدود الوسائل، لا نستطيع أن نتلمّسه عند أهله، وإنّما نتلمّسه عند الإنجليز والفرنسيّين والألمان، الذين سبقونا مع الأسف إلى العلم بهذا الأدب وتذوّقه، ويكفي أنّنا عرفنا أو ما عرفنا (عمر الخيام) في هذا العصر الحديث من طريق التراجم الإنجليزيّة، ومن طريق ما كتب عنه الإنجليز»(الشواربي، ١٩٤٤: ص م)

وقد أجاد عزام هذه اللغة حتّى صار أستاذًا لها، بل رئيسًا لقسم الدراسات الشرقيّة في الجامعة، وكم كان طه حسين منصفًا حين قال: «وبفضل عبد الوهّاب عزّام أخذنا نعرف أدب الفرس، ونعرف مِن آثارهم وأمورهم شيئًا غير قليل (طه حسين، ١٩٦٢: ص٣٤٣) ولم يكتف عزام بالترجمة عن اللغة الفارسيّة، ولا بالتأليف عن أدبها وأعلامها، بل كان يكتب بعض بحوثه أيضًا بالفارسيّة، ويشارك بمؤتمرات كانت تعقد بهذه اللغة، ومن ذلك بحثه المعنون بـ (مقام شاهنامة در أدبيات عالم) أي (مكانة الشاهنامة في الآداب العالميّة) الذي شارك به في مؤتمر بالفارسيّة عن الشاعر الفردوسي صاحب

الشاهنامة، في إيران في العام ١٩٣٤، كما يذكر الدكتور يوسف بكّار (بكّار، ٢٠١٩، ص٢٣) وقد نال مديح القائمين على المؤتمر الذين أعجبهم أنّه أديبٌ عربيٌ (تكلّم بلغة الشاهنامة) كما أورد بكّار.

وكما ذكرت سابقًا تجاوزت عناية عزّام بالفارسيّة بحوثه الأدبيّة لتصل إلى (الحقل اللغويّ) فقد تتبّع في العديد من دراساته وبحوثه واقعَ اللغة الفارسيّة في الهند، والصلات بين الفارسيّة واللغات الشرقيّة الأخرى، وكما تتبّع الألفاظ الفارسيّة في العاميّة المصريّة، بل كتب بحثًا طريفًا ونادرًا عن (الفارسيّة في كتاب سيبويه). وقد كتب يوسف بكّار بحثًا مهمًّا عن الاقتراض اللغويّ بين العربيّة والفارسيّة في مجلّة الدراسات الأدبيّة (انظر: مجلّة الدراسات الأدبيّة، ٢٠٠٩، مج ٤٠، العدد ٨٦، ص ٤٠١-٤١٧).

عناية عزام باللغة التركية وآدابها.

يقول عبد الوهّاب عزّام في مقدّمة (الشاهنامة) «كنت أسمع عن الشاهنامة كما كنت أسمع عن القصص الكبيرة الأخرى، وكنت أمنّي نفسي قراءة الكتاب، وأشتط في التأميل أحيانًا، فأمنّيها ترجمته حين يتاح لي علم اللغة الفارسيّة، وكنت أتمنّى درس الفارسيّة في حداثتي، أمنية نشأت في نفسي بعد أن مضيت سنين في درس (التركيّة) أو محاولة درسها، وأحسبني شرعت ألتقط بعض الألفاظ التركيّة من الأفواه والكتب وأنا في سنّ (الرابعة عشرة)» (عزّام، ١٩٣٩: ص٣).

إنّ عناية عزّام باللغتَين الفارسيّة والتركيّة وآدابهما في وقت مبكّر من عصر النهضة العربيّة، في عشرينيّات القرن المنصرم، يمثّل رؤية متقدّمة وسابقة لعصرها، إذ إنّ نقادًا معروفين راحوا يتساءَلون بعد قرن من الزمان على تلك النهضة حول تقصير المثقّفين والباحثين العرب عن دراسة هاتَين الثقافتَين وعلاقتهم وعلاقتنا بهما، أي حول علاقة الذات (بذاتها) وفي هذا الصدد يقول يوسف بكّار «فأمّا جدليّة الذات نفسها مع العالم الاسلاميّ فأمرها عسير، فأين هي المثاقفة الحقيقيّة مع الثقافتَين الإيرانيّة والتركيّة؟! مثلًا لا حصرًا، على الرغم من طول العلاقات القديمة وامتداداتها وعلاقتها بينها جميعًا،

على ما كان يشوبها من مدّ وجزر بين الحين والحين؟ ألسنا في حاجة، والحال هذه، أن نتصالح مع الذات نفسها ونحدّد الهويّة قبل أن ندخل في حوار مع الآخر؟!» (بكّار، ٢٠٢١: ص١٤٥).

ورّبما كان يوسف بكّار في هذه التساؤلات يشير، من قريب أو بعيد، إلى ما أسمّيه مشروع عبد الوهّاب عزّام الثقافيّ والحضاريّ، فعزّام ذهب إلى لغات الشعوب الإسلاميّة (الفارسيّة والتركيّة والأرديّة) يتقنها ويقرأ لغاتها وآدابها.. ليؤسّس كما قال بكّار، مصالحة بين أطراف هذه الذات، بل (هويّة) لهذه الذات، وملامح لمنجزها الحضاريّ وإبداعها الأدبيّ والفكريّ والعلميّ، قبل الدخول في حوار مع الآخر (الغربيّ)، هذا الحوار الذي شغل زملاء عزام وأقرانه آنذاك، لكنّه فضّل أن يتجه إلى مشروعه الآخر، كما أشرت.

إنّ معرفة عزّام باللغة التركيّة وثقافتها وآدابها كانت بجهد خالص منه، وقد رغب في تعلّم هذه اللغة وقراءَة أدبها لأنّ مشروعه الحضاريّ كما أسلفت يتطلّب الإحاطه بلغات الأمم التي طال تثاقفها مع العرب بسبب اشتراكهم في الدين الإسلاميّ فكان لا بدّ من البحث عن هذه الأمم وتراثها عبر لغاتها كمدخل أساسيّ لهذا المشروع، واعتقد عزام أنّ (الفرس والأتراك مسلمي الهند وباكستان من الناطقين بالأوردو) يشكّلون التجمّع الثقافيّ والحضاريّ الذي لا بدّ من اقتحام عوالمه، بل ذهب يبحث عن هذا المشترك الحضاري أبعد من ذلك، فكتب عن البلغار المسلمين. وقد كانت علاقاتُه وعملُه الدبلوماسيّ قد أكسباه كثيرًا من الأصدقاء والمعارف وخاصّة من المحيط الأدبيّ، وفيما يخصّ اللغة التركيّة يذكر عزّام عن محمّد عاكف قوله «وكان محمّد عاكف يرحمه الله -الشاعر الكبير الذي يسمّى في تركيا شاعر الإسلام- صديقًا لي وكنّا نقيم في مدينة حلوان فنلتقي بين يوم وآخر، ولا يمرّ أسبوع دون اللقاء.. وحين كنّا نلتقي نتذاكر الآداب العربيّة والفارسيّة والتركيّة، واقرأ عليه شعره أحيانًا» (عزام، محمّد عاكف شاعر الإسلام، ٢٠١٢، ص٨).

أضف إلى ذلك صداقات أخرى تركيّة مع أدباء دبلوماسيّين عرفهم في مصر أو

تركيا... وربما تشهد مؤلّفاته حول الأدب التركيّ والثقافة التركيّة بموقعه المتميّز فيهما، وقد أنجز عزام في هذا المجال العديد من الأعمال، التي توضح مدى اهتمامه وإتقانه للغة الأتراك ومعرفته بأدبهم، وأهمّها:

- راجعَ ترجمة كتاب (الدين والعلم) وصحّحها، للمفكر التركي أحمد عزت (١٩٤٨).
- ترجمه كتاب (اتحاد المسلمين) لجلال نوري (١٩٢٠).
- ترجمة (فصول من المثنوي) لجلال الدين الرومي (١٩٤٦) .
- تقديم لكتاب (تاريخ الحضارة الإسلاميّة) ف. بارتولد (١٩٤٩) يتحدّث عن الإسهامات الفارسيّة والتركيّة والمغوليّة في الحضارة الإسلاميّة.
- تحقيقه (لمجالس للسلطان الغوري) وفيها شعر بالتركيّة.
- أشرفَ على رسالة عن (الشاعر التركي فضولي البغداديّ) ١٩٥٥.
- ترجمة (الزامر الأعمى) وحياة الشاعر التركيّ (محمّد بك عاكف)، **الرسالة**، ع٥، مايو ١٩٣٣م.
- ترجمة الشيخ (البائس).
- عدّة مقالات عن (النهضة التركيّة)، **الرسالة**، ١٩٣٥ .
- عدّة مقالات عن شاعر الإسلام (محمّد عاكف)، **الرسالة**، من ١٩٣٣- ١٩٣٧.
- مقال عن (نامق كمال)، **الرسالة**، س١، ع١١، ١٩٣٣.
- مقالة عن (عبد الحق حامد)، **الرسالة**، س١، ع١٤، ١٩٣٣.
- ترجمه شعر للشاعر التركيّ (شهاب الدين)، **الرسالة**، س٣، ع٨٢، ١٩٣٥.
- من رحلاته «بين القاهره واستنبول»، **الرسالة**، عدّة مقالات بين ١٩٣٧ – ١٩٣٨.
- مدينة قونية، **الرسالة**، مقالات، ١٩٣٧.
- مقالة «ما يعاني الترك من تغيير الكتابة»، مجلة **الثقافة**، س٦، ع٢٨٨، ١٩٤٤.
- مقالة «أوزان الشعر وقوافيه، في العربيّة والفارسيّة والتركيّة»، مجلّة **كلية الآداب**، جامعة القاهرة، مج١، ج٢، ١٩٣٣.

عناية عزّام باللغة الأورديّة:

ربّما كان لعمل عزّام سفيرًا لمصر في باكستان دور مهمّ في زيادة معرفته بلغة الأوردو التي كان يعرفها سابقًا، ولا نعلم متى بدأت اهتمامات عزّام بلغة الأوردو على وجه التحديد، ولكنّ عنايته بمحمّد إقبال كانت أحد الدوافع الأساسيّة عنده ليعلم لغة الهند وباكستان، هذا من جانب، ومن جانب آخر، فإنّ المشروع الفكريّ والحضاريّ لعبد الوهّاب عزّام يدفعه لتعلّم كلّ لغة وكلّ ثقافة مثّلت مكوّنًا من مكوّنات حضارة الإسلام، الذي انتشر في العديد من بقاع الأرض بفضل الفتوحات والتجّار، وغير ذلك.

فمنذ دخول الإسلام شبه القارة الهنديّة وامتزاج السكّان بالمسلمين دخلت ألفاظ من اللغات (العربيّة والفارسيّة والتركيّة) إلى لغتهم، ويرى الباحث شوكت سراجي في مقالة عن (الألفاظ العربيّة في اللغة الأرديّة) أنّه حين (دخل الإسلام شبهَ القارة الهنديّة واختلط المسلمون من مناطق مختلفة من العالم الإسلاميّ بأهالي البلاد الأصليّين، بدأت لهجات جديدة في الظهور... ويتفق الباحثون وعلماء اللغة أنّ التطوّر اللغويّ الذي أدّى إلى ظهور اللغة الأرديّة نتج عن دخول المسلمين شبه القارة الهنديّة من الشمال والشرق في أواخر القرن العاشر الميلاديّ) موقع (www.shqwkutseraji.bloyspot.com) وقد أدرك عزّام هذه العلاقة بين اللغات الشرقيّة وما يربطها من أواصر المعرفة والتقارب المشتركة تحت مظلّة الإسلام، كما أنّ عزامًا وجد لزامًا عليه معرفة هذه اللغة التي كتب بها أفضل الشعراء وأقربهم إليه وهو محمّد إقبال كما أسلفت. فضلًا عن أنّ عبد الوهّاب عزّام يحتاج الى معرفه لغه (الأردو) في مشروعه الحضاريّ بعامّة، فعلى سبيل المثال كيف له أن يتحدّث عن الملاحم ويتجاهل المعرفه بملحمتي (المهابهاتا والرامايانا) عند الهنود، وقد اشار إليهما في مقدمة ترجمته للشاهنامة (انظر الشاهنامة، ١٩٣٢، ص٢٢-٢٤). وعزّام يدرك أيضًا أنّ الأتراك والهنود أخذوا ثقافتهم عن الفرس، وهو الأدرى والأكثر علمًا بلغة الفرس وآدابهم.

ومن جهوده في لغة الهند أو الأردو:

- مقالة: «صفحات من الشعر الهنديّ من عنوان رسالة المشرق لشاعر الهند محمّد إقبال»، مجلّة **الرسالة**، س١، ع٧، ١٩٣٣.
- مقالة: «جلال الدين منكبرتي»، مجلة **الرسالة** في رحلته نحو التوت، س١، ع٧، ١٩٣٣.
- مقالة: «عودة الى محمّد إقبال»، مجلة **الرسالة**، س٢، العدد ٥٣.
- ترجمة مقطوعات من الأدب الهنديّ والأدب الفارسيّ، مجلة **الرسالة**، س٣، ع٨١.
- مقالة «من شقائق الطور لشاعر الهند محمّد إقبال»، مجلة **الرسالة**، س٣،ع٨٨، ١٩٣٥.
- مقالة «زواج أمير عربيّ بأميرة هنديّة»، **الرسالة**، س٦،ع٢٣٨، ١٩٣٨.
- مقالة «مات الرجل العظيم محمّد إقبال»، **الرسالة**، س٦،ع٢٥٤، ١٩٣٨.
- مقالة «محمّد إقبال شاعر الإسلام وفيلسوفه»، **الرسالة**، س٦، ع٢٥٤-٢٥٦، ١٩٣٨.
- مقالة «محمد اقبال»، **الرسالة**، س٦،ع٢٦٢، ١٩٣٨.

جهوده المقارنة بين الآداب الشرقية (مشروع حضاري):

مَن يتأمّل جهود عبد الوهّاب عزّام في دراسة اللغات والآداب الشرقيّة (العربيّة - والفارسيّة والتركيّة - والأرديّة) يدرك أنّ الرجل كان يؤسّس (لمشروع حضاريّ) كلّي، وهذا الأمر هو نتيجة خرجتُ بها بعد قراءَة تفصيليّة ومعمّقة لتراث عبد الوهّاب عزّام وجهوده عامّة، فهو يريد أن يؤكّد روح الإسلام وقيمه وآفاقه الفكريّة والإنسانيّة التي تسرّبت إلى أمم أخرى غير أمّة العرب، فالموضوع ليس مجرّد دراسة مقارنة وملاحقة لمظاهر التأثّر والتأثير بين الثقافات الشرقيّة ولغاتها وآدابها، بل هو مشروع حضاريّ كلّي التزم به عزّام، وكانت جهوده في ترجمة وتحقيق ودراسة آثار مهمّة

في هذه الآداب هي السبيل إلى كشف ملامح العلائق، وتقديم تصوّر شموليّ لبنية الحضارة الإسلاميّة الممتدّة عبر الأمم، والتي يتلخّص مشهدها العامّ بنماذج فكريّة وأدبيّة لا بدّ من معرفتها ودراستها في ضوء هذه (البنية).

راح عبد الوهّاب عزّام يتلمّس طريقه في بناء (مشروعه الحضاريّ) هذا، ويلمّ شمل عائلة الحضارة الإسلاميّة من خلال ما أنتجته قرائح أبنائها في لغة العرب والفرس والأتراك وأبناء الأرديّة، وكان مدركًا أنّ منجزهم الأدبيّ والثقافيّ إذا اجتمع بعضه جوار بعض ستتمكّن من جمع أطراف اللوحة كلّها، فأذرع هذه الحضارة تشدّ أزرَ بعضها البعض، وتبني معمارًا باسقًا، وهو مع ذلك كلّه ينظر إلى هذا المعمار بكثير من الإعجاب والحبّ، ولكن من دون أن ينكر ما في معمار الآخر أو (حضارة الآخر) الغربيّ من عناصر حيّه ومهمّة لا خلاف في التعامل معها، وعلى الرغم من وضوح رأيه في جوانب أخرى من حضارة الآخر، فقد تحدّث الدكتور عزّام عن الحضارة الأوروبيّة مبيّنًا «أنّهم انتصروا علينا بما أتاح لهم العلم الصناعيّ من أسلحة الفتك والدمار، وأدوات الترف والمدنيّة والتقدّم، فبهروا النفوسَ بما أبدعوا من رقيّ، وفتنت الأغرارَ منا أضواءُ المسارح والمعارض والأزياء فاندفعوا إلى اقتباسها، وقعد بهم عجزهم عن اقتباس العلم الحضاريّ، فأقعدهم مركّب النقص عن التسابق مع الأوروبيّين في ميدان العمل المثمر، وقد نتج عن ذلك أن أنكرنا أنفسنا وحقّرنا ما عندنا... ثم أتبع الدكتور عزام ذلك بقوله المرير (ليتنا حين أخذنا عن غيرنا أخذنا الجليل والحقير، وحاكينا من الجهد والهزل، وكم في الغربيّين من قدوة صالحة، وأسوة نافعة، وخطّة حميدة، ولكن عظائم الأعمال لها وسائل من الكدّ والدأب، واحتمال المشاق والصبر عليها، وللمجد مصاعد شاقّة وتكاليف مرهقه.. فقد أسرعنا في هزل الغربيّين ولهوهم، وشقّ علينا أن نضطلع بكثير ممّا اضطلعوا به، وعملوا له في نظام محكم، وخطّة شاقّة، ودأب لا يكلّ» (البيّومي، ١٩٦٩: ص٣٩٨).

وهكذا يسعى عزّام لدعوة الأمّة الإسلاميّة إلى الأخذ بأسباب الرخاء والتقدّم، وإن لم نتمكّن من أخذها عن الغربيّين فإنّ في حضارتنا نحن الشرقيّين غنى في الروح والقيم

ما يكفي أن يدفع بنا نحو الرقيّ والتحضّر والتقدّم، وطالما اهتمّ عزّام بما يحملنا على هذا كلّه، وفي مقالاته ومؤلّفاته عناية جليّة بالتدافع والتعالق الحضاريّ، وهو دائم الإشارة إلى الأمم التي تسعى إلى التقدّم مادّيًا وروحيًّا، ففي مقالته (النهضة) ضمن كتاب (الأوابد)، يقول عزّام موضحًا أنّ لها أسبابًا وعوامل داخليّة من نبوغ في عزمها وعزيمتها في مجالات الحكم والتعليم والزراعة والصناعة والتجارة، كما أنّ هذه النهضة قد تأتي بذورها من الخارج «وذلك باختلاط الأمم ونظر بعضها إلى بعض، فيكون بينهما من التقليد والغيرة والتنافس ما يكون بين الأفراد... كما كان سيلُ الأوروبيّين على المشارقة في هذا العصر مثيرًا لهذه الحركات التي تناولت كلّ أساليب الحياة في الشرق... لا تحقّروا ما أيّدته التجارب وهدى إليه الوجدان، لا تخلطوا المدنيّة الصناعيّة بالمدنيّة الأخلاقيّة، فتتّخذوا رقيّ أمّة في صناعتها دليلًا على رقيّ أخلاقها وآدابها، ولا تجعلوا فقركم في الصناعة والوسائل الماديّة برهانًا على فساد أخلاقكم وآدابكم، فبين الأمرَين فرقٌ عظيم» (عزّام، الأوابد، ٢٠١٢: ص٢٦٢-٢٦٣).

وبناءً على هذا أدرك عزّام أنّ الحضارات المشرقيّة لم تستطع التفوّق على الحضارات الغربيّة في الصناعات والوسائل الماديّة لكنّها تملك تاريخًا عظيمًا، وشراكة متينة، وإرثًا روحيًّا وأدبيًّا جليلًا، فراح عزّام يبرز هذا الإرث الروحيّ والأدبيّ، والقيم الإنسانيّة، وجوانب التجاذب والالتقاء، سواءً أكان ذلك في القديم أو الحديث.

بدايات اللقاء الحضاريّ

عُنِيَ عزّام في البحث عن بدايات اللقاء الحضاريّ بين العرب وغيرهم من الأمم، فكان كتاب (**الصلات بين العرب والفرس وآدابهما في الجاهليّة والإسلام**) ١٩٤٨، حيث جهد عزّام في غربلة الأخبار والروايات التي تتحدّث عن العلائق بين الشعبَين، فمنها أساطير وخرافات، ومنها ما هو قريب من التاريخ، ومنها ما هو تاريخ حقيقيّ. ويؤكّد عزّام أنّ العرب والفرس تجاوروا وتخالطوا في الجاهليّة بما (يصل لغتي الأمّتين)، ويقرّب بين آدابهما، وعندنا أثارة من هذه الصلات في العصر الساسانيّ ولا سيّما أواخره، إنّ

الصلات بين الأمّتين في الأمور الاجتماعيّة والأدبيّة أقدم عهدًا ممّا عرفناه (عزّام، ١٩٤٨: ص٣١).

أمّا حديثه عن الصلة بين العرب والفرس بعد الإسلام فقد أفاض عزّام في ذكر الأمثلة عنها وقال «وإنّما أفيض في هذا لأبيّن أنّ العرب والفرس بعد الفتح لم يكونوا في نضال مستمر، وأنّ العرب لم يستعبدوا الفرس كما يزعم بعض المؤرّخين، ولم يفعل العرب إلّا أن حطّموا الحدود الوطنيّة، فدخل الفرس في جماعة أوسع من جماعتهم، وشاركوا في العلوم والآداب التي تعاونت عليها الأمم الإسلاميّة، ونالوا عليها المناصب» (**الصلات**، ١٩٤٨: ص٣٧)، زد على ذلك أنّ الفرس ليس وحدهم من تأثّر بالآخر العربيّ، بل إنّ العرب أنفسَهم استقبلوا اللغة والثقافة الجديدتَين وتأثّروا بهما «ويحدّثنا الجاحظ أنّ لغة أهل البصرة بل لغة أهل المدينة، كان بها كثير من الكلمات الفارسيّة في أيّامه، ممّا يدلّنا على بقاء الفارسيّة وتأثيرها البعيد.. ولست في حاجة إلى ذكر ما دخل العربيّة من الفارسيّة ولا سيّما أسماء الطعوم والأثاث، فكتبُ اللغة كفيلة بهذا، بل نجد بعض الشعراء يتملّح بذكر ألفاظ فارسيّة في شعره» (نفسه: ص٤١).

ويرى الدكتور يوسف بكّار أنّ أهمّ الآراء المعتدلة في شأن الأثر الثقافيّ للفارسيّة في العربيّة هي آراء أحمد أمين في (ضحى الإسلام) وشوقي ضيف في كتابه (العصر العباسيّ)، فقد «تحدّث أحمد أمين عن أثر الثقافات الثلاث الفارسيّة والهنديّة واليونانيّة، وركّز كلامه على الثقافة الفارسيّة على الآثار الحضاريّة في الحياة الاجتماعيّة وأثرها في الأدب، والأدب المكشوف خاصّة، ومن انضوى تحته من ضروب وأشكال ثمّ أشار إلى أثر القصص الفارسيّة التي نُقلت إلى العربيّة، وإلى فنّ (التوقيعات) وغير ذلك ممّا أُثر عن الفرس» (بكّار، ٢٠٠٠، نحن وتراث فارس: ص١٢؛ أحمد أمين، ضحى الإسلام، ١٩٦١، ص١٨١-١٩٥). أمّا شوقي ضيف فيرى أنّ الثقافة الشعبيّة الفارسيّة هي التي كانت أبعد تأثيرًا في المحيط العربيّ، فقد دخل جمهور الفرس الإسلام، واقتبس العرب كثيرًا من صور حياتهم (ضيف، ١٩٨٠، ص٩٥).

ويبدو أنّ عبد الوهّاب عزّام يتخذ من بحثه المعمّق في تراث الفرس ولغتهم وأدبهم

وسيلةً مهمّة لتحقيق غايته، بل (مشروعه) كما أسميتُه سابقًا، وعلى هذا الأساس تجد مسمّياته لعناوين الفصول في كتابه (الصلات بين العرب والفرس) تسير في خدمة هذا المشروع، فالفصل الثالث عنوانه (الفرس في الدولة والجماعة الإسلاميّة) وهذا يدلّ على شدّة عنايته بأطراف المعادلة التي صاغت الحضارة الإسلاميّة ولبناتها التي كوّنت بناءَها «وسرعان ما تعلّم الفرس العربيّة، وشاركوا في العلوم الإسلاميّة» (عزام، الصلات بين العرب والفرس: ص٤٣). ويذهب عزّام في تجلّيات تأثير الفرس في الحضارة العربيّة الإسلاميّة، فإذا كان العرب قد أثّروا في أبناء فارس بأن بلّغوهم رسالة الله ودينه (الإسلام) ونقلوا إليهم قيمه وروحه وأخلاقه، فإنّ الفرس لمّا دخلوا الإسلام أغنوا اللغة العربيّة بمنجزاتهم العلميّة، ومساهمتهم الفكريّة والأدبيّة، منذ العصر الأمويّ، وحتى (المعتصّبين أنفسهم قد اتخذوا العربيّة لغتهم، ولم يجعلوها موضع نزاع، ولا عدلوا بها لغة أخرى، والحقّ أنّ كراهتهم للعرب لم تكن كراهة للغة العربيّة، وأصدق شاهد على هذا أبو عبيدة اللغويّ، كان شعوبيًا متعصّبًا على العرب، وأصله يهوديّ فارسيّ، ونحن نعلم ما أجدت مؤلّفاته على اللغة العربيّة، وما بذل من جهد لحفظها ورواية آدابها»(الصلات: ص٤٧).

ويمضي عزّام في تتبع الجوانب البنائيّة التي شدّت أواصر التلاحم والتقارب بين الثقافتَين الفارسيّة والعربيّة، وعلى رأسها ترجمة أمّهات الكتب الفارسيّة بالعربيّة، ولا يخفى ما للمترجمين الفرس من فضل في هذا المجال، بل وفي ترجمة ذخائر لغات أخرى بالعربيّة.

ويصرّ عزام كذلك على إيضاح صلة الأدب الفارسيّ الحديث باللغة العربيّة حتى بعد استقلال إيران عن الخلافة الإسلاميّة، مؤكّدًا استمرار الصلات والعلائق والوشائج بين ثقافتَين مختلفتَين وحّدت بينهما روح الإسلام وحضارته.

وتحت مظلّة هذا المشروع الحضاريّ الكليّ أنجز عزّام ما أنجز من بحوث ودراسات في سياق الأدب المقارن بين اللغات الشرقيّة، التي تناولها واحدة تلوَ الأخرى فكانت الثقافة الفارسيّة أولاها وأشدّها جذبًا لعزام وتطلّعاته البحثيّة.

ولإلقاء المزيد من الضوء على اهتماماته بالجانب الفارسيّ، لا بدّ أن نعرف أنّ عزامًا أخلص لهذا الجانب أيّما إخلاص، وبذل من أجله جهدًا عظيمًا، ولعلّي استشهد ببعض ذلك ممّا ورد في مقدمة ترجمته للشاهنامة حيث يتضح لنا الجهد الضخم الذي بذله في البحث عن مخطوطات الكتاب؛ فسافر إلى لندن وباريس وبرلين وإسطنبول يلاحق كلّ جزء من المخطوطة، أو عمل يتعلّق بها (مقدمة الشاهنامة، ص١-٤) ولهذا وغيره سمّى الدكتور يوسف بكّار جهود عزّام بـــ (الريادة المنسيّة) وقد استحقّ هذه الريادة بجدارة، ففي جانب المثاقفة بين (الثقافتين العربيّة والفارسيّة) تخصيصًا، أنجز عبد الوهّاب عزّام ما يشبه إنجاز مؤسّسة ثقافيّة قائمة بذاتها، ولا أريد أن أشغل القارئ بالجزئيّات والأعمال السريعة في هذا المجال، إنّما سأركّز على تحليل الأعمال الكبرى والإنجازات الباسقة له في إطار المثاقفة بين العربيّة والفارسيّة، وإذا تجاوزنا عمله التأريخيّ المشار إليه سابقًا (الصلات بين العرب والفرس) فإنّ عمله في الشاهنامة ذو دلالات عميقة في مشروعه الحضاريّ، وهو ما سيكون مجالًا للنظر والتحليل في الصفحات التالية.

الشاهنامة

تحدّث عزّام عن الملاحم عند الشعوب، وعندما وصل به الحديث إلى الأدب العربيّ بيّن أنّ «للعرب قصصًا في جاهليّتهم وإسلامهم، ولكن ليس فيها قصةٌ يسوغ أن تسمّى ملحمة ولو أُتيح لأيّام العرب الجاهليّة شاعر كالفردوسي لنظم منها ملحمة رائعة. هذا إلى ما يقوله بعض الباحثين عن سفر أيوب في التوراة أنّ أصله عربيّ» (عزّام، الشاهنامة، ١٩٣٩: ص٣٣) وبطبيعة الحال لم يعدّ عزّام هذا عيبًا في الأدب العربي، بل هو راجع إلى سمات هذا الأدب وطبيعة شعرائه، وهي سمات وطبائع لا يشترط أن تتطابق جميعها في كلّ الآداب فقصص العرب في الجاهليّة لو جُمعت لألّفت ملحمة غاية في الطول، وهي محفوظة في تراثنا.

ويرى يوسف بكّار أنّ عناية عبد الوهّاب عزّام بالشاهنامة وصاحبها الفردوسي

«من أقدم اهتماماته في الأدب الفارسيّ، إذ كانت أطروحته للدكتوراه من جامعة القاهرة عن تصحيح ترجمة الشيخ البُنداري العربيّة النثريّة للشاهنامة التي وازنها بالأصل الفارسيّ، وأكمل ترجمتها في مواضع ودرسها هي وصاحبها دراسةً وافية، وقد كلّفه هذا رهقًا تحدّث عنه في المقدّمة، ما حدا بطه حسين أن يقول: والأمة العربية مدينة لعبد الوهاب عزّام.. بإحياء الشاهنامة» (بكار، ٢٠١٩: ص٥٣). حيث كانت ترجمة البنداري مجهولة، ولا ذكر لها في الدراسات الأدبيّة، أو المقارنة، فكانت دراسة عزام وإخراجه لها بالفعل إحياءً لها.

وقد تحدّث عزّام في (رحلاته) عن اعجاب أدباء الفرس بهذه العناية المتميزة منه بشاهنامتهم، وكيف لا وهو يرى رأيَ أستاذه طه حسين ويؤمن به، أعني إيمانه بأنّ الأدب الفارسيّ هو امتداد للأدب العربيّ، يقول عزّام في رحلاته: «قل للذين يلتفتون عن المشرق، ليولوا وجوههم شطر المغرب (الغرب) إنّما تعرضون عن أنفسكم، وتاريخكم، فابدأوا بأنفسكم فاعرفوها، وبمآثركم فعظّموها ثمّ اعرفوا لغيركم أقدارهم، ولا تبخسوا الناس أشياءَهم (عزّام، ١٩٣٨: ص٢٠٣) هذه هي نظرة عزّام الأساسيّة والجوهريّة في (مشروعه الحضاريّ) وهي تمثّل لبّ هذا المشروع وأساسه، وقد استطاع بالفعل أن يلفت الأنظار إلى بضاعتنا نحن العرب والمشارقه (من فرس وترك وهنود) وقد كان اشتغالُه على الشاهنامة أحدَ أكبر أوجه مشروعه، لذا أشار بكّار إلى الرهق الذي عايشه عزّام في إخراج هذه الملحمة الشرقيّة، استنادًا لما أشار إليه طه حسين من قبل.

شعر محمّد إقبال في جهود عزّام

واستمرارًا لعنايته بالأدب الفارسيّ وأعلامه الكبار، وأعمالهم البارزة، عهد عزّام على نفسه أن يعرّف الثقافة العربيّة بأحد أهمّ أعلام الأدب العالميّ، ممّن كتبوا بالفارسيّة والأرديّة والإنجليزيّة، إنّه (محمّد إقبال) الذي ألّف فيه عزّام شعرًا قيّمًا، وترجم له العديد من اعماله البارزة، والمعروفة لدى مثقّفي العالم، لقد جاء كتاب عزّام المعنون بـ (محمد إقبال: سيرته وفلسفته وشعره) كما ذكر طه حسين في التقديم اكتشافًا

عربيًا لنابغة من نوابغ الشرق، الشاعر العظيم محمّد إقبال شاعر الهند وباكستان، وهو كتاب ممتع، قدّم فيه عزّام طائفة رائعة من آثار إقبال لوطنه وللغته العربيّة... ويتابع طه حسين تقريضه للكتاب في المقدّمة نفسها بأنّه كتاب «لا يصوّر إقبالًا وحده، إنّما يصوّر معه عبد الوهاب عزّام، كلا الرجلين كان عذب الروح محبّبًا إلى القلوب، وكلا الرجلين كان بعيد المرامي، لم يكن عبد الوهّاب عزّام يكتفي بأن يكون مصريًّا عربيًّا، وإنّما كان يريد -وقد حقّق ما كان يريد- أن يكون عربيًّا إسلاميًّا.. فكان لقاء هذين الرجلين الكريمين لقاءَ روحين ائتلفا فتحابّا في ذات الله وفي ذات الإسلام، وكلا الرجلين كان شاعرًا كاتبًا» (عزّام، ١٩٥١: ص٩).

لقد أُعجب عبد الوهّاب عزّام بمحمّد إقبال كل الإعجاب، أُعجب بصوفيّته المعتدلة، المشرقة، الإيجابيّة، أُعجب بأدبه وتأثيره العميق في أدباء وطنه، بل في المسلمين والإنسانيّة كافّة، وقد أبدع عزام في كلمته التي ألقاها في ذكرى وفاته، حيث وصفه (بشاعر الإسلام) الذي دعا المسلمين حديثًا الى المجد الذي يكافئ دعوتهم، وتاريخهم، ووصفه (بشاعر الشرق) الذي دافع عنه، وأعاد إليه اعتباره، وهو يدين الماديّة الصمّاء لدى الغرب، وسمّاه (شاعر الحياة) الذي عرف معناها، وكشف قواها، وبصُر بمجراها ومنتهاها، وهو عنده (شاعر النفس) الذي أبان ما فيها من قوّة، ونار وضياء، ودعا إلى اكتناه أعماقها، واستخراج كنوزها.. وكذلك وصفه بـ (شاعر الحريّة) و(شاعر الدأب والجهاد في الحياة) (وشاعر التقدّم والتجديد) و (شاعر الإنسانيّة) في روعتها وطموحها وبهائها.

ويختم كلمته بالقول: «قلت إنّ الحياة مجدّدة تكرهُ التكرار، ومقدّمة تأبى التقهقر، ودعوت الإنسان أن يمضي قدمًا في الحياة مقدمًا له كلّ حين فكرة وكلّ ساعة نغمة، وبيّنت أنّ الإقدام والابتكار هما فرق ما بين العبيد والأحرار.

يا شاعر الجمال! صوّرته في الأرض والسماء، واليبس والماء وفي الصحاري الجرداء، وفي الحدائق الغناء يا شاعر الجلال!

جلوته في الخالق والخليقة..أيّها الشاعر الملهم! بانت لك الأسرار ورفعت عن

الغيوب لك الأستار، فرأيت الباطن كالظاهر، وأدركت المستقبل كالحاضر....» (م.ن، ص١٧-١٨).

هذا هو إقبال عند عزّام، هذا هو شاعر (الجلال والجمال) ولقد كان تقدير عزّام لمحمّد إقبال، وإدراكه قيمته الموضوعيّة والفنيّة تقديرًا مبكّرًا، ولقد رأى فيه خيرَ من يمثّل (مشروعه الحضاريّ) والذي يمزج بين حقيقة الإسلام وحقائق الحياة والنهضة والتقدّم، والخيريّة والحريّة والعدل، فإقبال مثّل في أدبه شاعرًا ومفكرًا وحكيمًا فيلسوفًا، كتب أشعاره بالفارسيّة والأرديّة والإنجليزيّة، وكان له تأثيره العالميّ في الهند وباكستان وآسيا الوسطى، وأفغانستان وتركيا وإيران، فلمَ لا يؤثّر في أدبنا العربيّ؟! وهو الشاعر المصلح المجدّد.

ولم تقف عناية عزّام بإقبال عند حدّ الكتاب السابق، المشار إليه (محمد اقبال: سيرته وفلسفته وشعره) بل ترجم له أبرز أعماله الشعريّة: ديوان (بيام مشرق) أي (رسالة المشرق) عن الفارسيّة في العام ١٩٥١، وديوان (ضرب الكليم) أي (ضرب موسى عليه السلام الحجر) ترجمه عزّام عن الأرديّة في العام ١٩٥٢، وديوان (الأسرار والرموز) أي (أسرار إثبات الذات) و (رموز نفي الذات) ١٩٥٦.

وبهذا يكون عزّام قد ترجم لإقبال أربعة دواوين من أبرز أعماله وأجلّها، وذكر بأنّه كان ينوي ترجمة (جاويد نامه) أي (رسالة الخلود) لكن الوقت لم يسعفه.

وإذا تجاوزنا تصوّف إقبال وفلسفته إلى ما جاء في ديوان (رسالة المشرق) حيث ذكر إقبال في مقدّمته بأنّه ردّ على جوته يبيّن فيه التأثير الشرقيّ في الأدب الألمانيّ، والدَّين الكبير لثقافة الفرس في شعر جوته وفكره، فهو مدين لحافظ الشيرازيّ، وفريد الدين العطّار، وسعدي الشيرازيّ والفردوسي، والأدب الإسلاميّ عامةً كما يقول إقبال.

لقد أوضح إقبال في المقدّمة التي ترجمها عزّام لهذا الديوان أنّ هذه الأشعار ترمي إلى «النظر في الحقائق الأخلاقيّة والدينيّة التي تتصل بالتربية الباطنيّة في الأفراد والأمم، ولا ريب أنّ الاضطراب الباطن في أمم العالم، الذي لا نستطيع تقدير خطره لأنّنا متأثّرون به هو مقدّمة انقلاب حضاريّ وروحانيّ عظيم... كانت الحرب العظمى

في أوروبا كادت تمحو نظام العالم، وإنّ الفطرة لتخلق اليوم في أعماق الحياة من رماد الحضارة والثقافة إنسانًا جديدًا، وتخلق عالمًا جديدًا لإقامة هذا الإنسان... إنّ الشرق، ولا سيّما الشرق الإسلاميّ، يفتح عينيه بعد نوم القرون المتطاولة، لكن يجب على أمم الشرق أن تتبين أنّ الحياة لا تستطيع أن تبدّل ما حولها حتى يكون تبدّل في أعماقها، وأن عالمًا جديدًا لا يستطيع أن يتخذ وجوده الخارجيّ حتى يوجد في ضمائر الناس قبلًا... وأنّه لجدير بالإكبار كلّ مسعى في العالم ولا سيّما في بلاد الشرق، يقصد إلى أن يرفع أنظار الأفراد والجماعات فوق الحدود الجغرافيّة فيولد أو يجدّد فيها سيرة إنسانيّة صحيحة قويّة» (عزام، بيام مشرق، ٢٠١٢م، ص٢٤-٢٥).

وهذه السيرة الإنسانيّة هي التي يبحث عنها، وهو ما وجده في أدب محمّد إقبال، هذه الإنسانيّة التي يقول فيها إقبال:

أأفغان وتاتار وترك وفي مرج ومن غصن نمونا

حرام بيننا تفريق لون ربيع واحد فيه زهونا

فريد الدين العطار

مثلما أراد عزّام من تأليفه لكتاب إقبال أن ينشر فكر تجديدًا إصلاحيًا في مجال النظر إلى حال الإنسان والمجتمع، ولا سيّما المجتمع الإسلاميّ في بلاد المسلمين، وأراد أن تسود النظرة الحقيقيّة للعلاقة بين الروح والمادّة، فهو في كتابه (التصوّف وفريد الدين العطّار) يرمي إلى إيضاح صورة التصوّف الصحيح، فتحدّث في مقدّمة الكتاب عن التصوّف الإسلاميّ ونشوئه وتطوّره، مبيّنًا بعد عرض الخلافات أن أصل التصوّف موجود في القرآن والسنّة، والعطّار الذي خصّص له عزّام هذه الكتاب يكره الفلسفة، فعزّام يبحث عن نموذج صوفيّ صحّيّ، يتصل بمفاهيم الزهد، ويكرّر نماذج حياتيّة من الصحابة والتابعين كمالك بن دينار والحسن البصريّ وأبي العتاهية وغيرهم.

كما تحدّث عن علاقة التصوّف بالأدب، شعرًا ونثرًا، فكانت لهم لغتهم واصطلاحاتهم الخاصّة ورموزهم التي عرفت عنهم، وقد انتقل أدب التصوّف إلى الآداب الفارسيّة

فالتركية فالأرديّة، وتحدّث عن أسرة العطّار وأخبارهم القليلة، وانتقل إلى (سيرته) مفصّلة، ورحلاته، وطلبه للعلم وانتقاده للفلسفة، حتى نال العطّار منزلة عليّه بين الشعراء والمتصوّفة، ثمّ تحدّث عن مؤلّفاته التي فاقت العشرين عملًا، أشهرها (منطق الطير).

على الرغم من عدم تحديد العطّار لملامح تصوّفه، إلّا أنّه واضح في حديثه عن (طريق المعرفة) فهو لا يثق بالعقل كثيرًا، لأنّ مقصد الصوفيّ وراء العقل، والعشق، هذه القوّة الخفية تبعث الإنسان على الطلب والعمل والإقدام.. لكن العطّار لا يجعل العقل عاجزًا كلّ العجز.. وقد ناقش عزّام موضوعات شعره، وكيف يوصي بالعمل الذي لا يفتر، والمجاهدة التي لا تنقطع. وفي خاتمة الكتاب يأمل عزّام أن يكون عمله «فاتحة أبحاث في التصوّف... تنشر بين الناس نفحات صوفيّة تؤثّر في قلوبهم، ويجدوا أنفسهم التي فقدوها في طلب مطامعهم وشهواتهم» (عزّام، التصوّف وفريد الدين العطّار، ص١٠٠).

جلال الدين الرومي والمثنوي

يرى محمّد عبد السلام كفافي في إطار الحديث عن جلال الدين الرومي أنّ عزّامًا «من أقدر الباحثين العرب على فهم المثنوي وتذوّقه» (كفافي، ١٩٦٦: ص٦١). وأضاف طلعت أبو فرحة أنّ كتاب عزّام (فصول من المثنوي، ١٩٤٦) « كان فاتحة دراسات عن جلال الدين الرومي» (أبو فرحة، ١٩٧٥: ص٢٠٤).

عمر الخيام و الرباعيات

ترتد صلة عبد الوهّاب عزّام بعمر الخيّام ورباعياته «إلى العام ١٩٣٤ حين شارك في المؤتمر الدوليّ للفردوسي صاحب (الشاهنامة) وقُدّر له أن يزور (نيسابور) مسقط رأس الخيّام، ويزور مرقده، وقد كانت الزيارة مدعاة إلى أن يترجم نثرًا الرباعيّات الست المنقوشة على صفحات أعمدة الضريح» (بكّار، ٢٠١٩: ص٥٩) وقد بلغت الرباعيّات التي ترجمها عزّام للخيّام (خمس عشرة رباعيّة) أثبتها يوسف بكّار في دراسته (كشف

اللثام عمّا بين عبد الوهّاب عزّام وعمر الخيّام) ونشرت في الرأي الثقافيّ (٤ آذار ٢٠١٦)، وقدّمها في مقالة أخرى في الصحيفة نفسها (١٨-٣-٢٠١٦).

وقد ذهب عدد من الباحثين إلى أنّ عزامًا لم يكثر من العناية بالخيّام وشعره لما فيه من شرب وسكر لا يتفقان مع حياة عزّام الصوفيّة المتديّنة، وفي هذا ما فيه من الصحّة والصواب، لكن عزّامًا لا يغفل عن فنّ الخيام وأثره في غيره من وجهة النظر المقارنة، ففي العام ١٩٣٨ نشر مقالًا بمجلّة الهلال المصريّة بعنوان (بين أبي العلاء والخيام) «فكان بهذا من أقدم الدارسين العرب الذين التفتوا إلى مسألة الموازنة أو المقارنة بين المعري والخيام... يتبدى من هذا المقال أن عبد الوهّاب عزّام لم يكن يهدف إلى أن يقاربه – بالمفهوم الفرنسي – بين الشاعرين، بل يجوز أن يدرج ما بيّنه من وجوه الاتفاق بينهما في مفهوم الموازاة/ المتشابهة الأمريكي للمقارنة، ومن البيّن كذلك أنه ولج ساح الموازنة مأخوذًا بما عرف عن الخيام من خلال الرباعيات المنسوب أكثرها إليه... بيد أن عبد الوهّاب عزّام يرى أنّ ثمة وجوه شبه واتفاق بين الرجلين لا يدركها من يقنع بالنظريات العاجلات بينهما فكلاهما: متفلسف قرأ الفلسفة وفكر تفكيرًا عميقًا فلسفيًا وكان له فلسفة عملية انتهت إليها آراؤه على بعد ما بين النهايتين، الذي يعنينا أنّ الرجلَين كليهما فكّرا في العالم فتحيّرا وتشاءَما، وحزنا، وصوّرا للناس ما أدركا وأحسّا» (بكّار، ٢٠١٦: ص ٨).

وفي المقالة المذكورة المنشورة في الهلال (العدد ٨، يونيو، ١٩٣٨) يتساءَل: «ماذا نجد من قرب بين بصير رأى ألوان الحياة، وسرح طرفه في أرجائها، وأمتع نفسه في مشاهدتها، وسرى همومه بمرائيها، ورأى فيها مضطربًا واسعًا، وبين آخر كفيف لا تنطلق نفسه في نظراته، ولا يهتدي السبل في مناكب الأرض، لزم داره وتسمّى رهين المحبسين، العمر والدار، بل رأى الحياة محبسًا ثالثًا فقال:

أراني في الثلاثة من سجوني ... فلا تسأل عن الخبر الثبيت
لفقدي ناظري ولزوم بيتي ... وكون النفس في الجسد الخبيث

بل ما تجد من شبه بين هذا الفلكي البصير الذي يأخذ حظّه من متاع الدنيا ولذة

العيش، ويدعو الناس لانتهاز الفرص، وبين هذ الأديب الضرير الذي غلب عليه الحزن والانقباض، وزهد في الدنيا ودعا جاهدًا الى الزهد فيها (عزام، ١٩٣١، الهلال: ص٣٠) ثم بعد ذلك يثبت عزام للقاريء أن ثمة جهات كثيرة من التشابه بينهما، برغم الفروق الظاهرة، وهي أفكار نتجت عن قراءَة متأنية، عميقة، لا يدركها القاريء المتعجّل.

قضايا متفرقة في المجال المقارن.

بالإضافة إلى جهوده في ملاحقة أعلام الأدب المشرقي ودراساته المقارنة لجهودهم خاصة في إطار المقارنة بين العربية والفارسية، تناول عزام الكثير من القضايا الأدبية واللغوية وبحثها بحثا مقارنًا، فكان رائدًا ومؤسسًا لمثل هذه البحوث، وفتح بذلك الطريق لدارسين جاؤوا بعده، ومن أبرز هذه الموضوعات ما يلي:

١- التأثر والتأثير بين اللغتين العربية والفارسية وغيرها.

تحدث عزّام في كتابه (الصلات بين العرب والفرس) عن مدى تغلغل الألفاظ الفارسية في العربية، اعتمادًا على الجاحظ، مما يدلنا على تغلغل الفارسية في لغة أهل البصرة، وألفاظ الطعام والأثاث مما أفاضت كتب اللغة الحديث عنه، وقد عقد الفصل السادس عن (مكان العربية في إيران من الفارسية) «والخلاصة أنّ العربية فيما عدا الشعر حلت مكانة فوق الفارسية» (عزّام، الصلات بين العرب والفرس، ٢٠١٢م، ص٦٥) وقد عقد يوسف بكار مقالة نشرها في جريدة الرأي (٢٠١٥/٣/٢٨) عن (عبد الوهّاب عزّام وتأثير العربيّة في اللغات الإسلاميّة) أوضح فيها جهد عزّام في هذا الإطار (قبل الإسلام وبعده) وقال: «صفوة الرأي أنّ اللغة الفارسيّة التي كتب بها الفرس منذ أواخر (ق٣هـ) نشأت في حضانة العربيّة، وترعرعت في سلطانها، فكُتبت بالخط العربيّ، واشتملت على ألفاظ عربيّة تزيد على الألفاظ الفارسيّة أحيانًا، لأنّ اللغة العربيّة تسربت إلى لغة الخطاب في إيران كلّها، وغلبت عليها في الحواضر الكبرى واستأثرت باصطلاحات العلوم والفنون حقبًا طويلة (بكّار، ٢٠١٦: ص٨).

ويتتبع يوسف بكّار جهود عزّام في دراسة التأثير بين العربيّة والتركيّة والهنديّة كذلك، حيث بحث عزّام هذا الأمر بسبب مجاورة البلدَين والثقافتَين لإيران، وتأثّرهما بالعربيّة عن طريق الفارسيّة «ويبدو من بحوث عزّام ومقالاته بين العربيّة واللغات الإسلاميّة، أنّه قصد إليها قصدًا مدفوعًا بكلّ ما عرف عنه من عشق للعروبة والإسلام، ليؤكّد حقيقة تلك الصلات وواقعها وما رافقها واعتراها من تأثّر وتأثير وقرض لغويّ متبادل.. فالتركيّة العثمانيّة لم تعرف من تاريخها غير الحروف العربيّة، ولم تدوّن إلّا في ظلّ الحضارة الإسلاميّة بعد سبعة قرون من الهجرة» (م.ن: ص٨).

وللأسف فإنّ جهود عبد الوهّاب عزّام في درس العلائق اللغويّة بين اللغات الإسلاميّة لم تجمع بين (دفّتي كتاب، والباب مفتوح للباحثين للقيام بهذه المهمّة العظيمة الشأن، فجهود عزام مبثوثة في كتب ومقالات متفرّقة، فنجدها في كتاب (الشوارد) وكتاب (الصلات) وكتاب (التوجيه الأدبيّ) الذي ألّفه بالاشتراك مع طه حسين وأحمد أمين، وفي كتاب (الرحلات) وكتاب (الصاحب بن عباد) وكتاب (الأوابد) وكتاب (ذكرى أبي الطيب) وكتاب (ضرب الكليم) وكتاب (النهضة التركيّة) الذي ترجمه عزّام، وكتاب (جهار مقالة) مع يحيى الخشّاب، وغيرها من الكتب والمقالات التي تحتاج ملاحقتها إلى بحث مستقلّ عن جهود عزام اللغويّة.

٢- المقارنة بين أوزان الشعر وقوافيه.

فقد عُنِيَ عزّام بالمقارنة بين أوزان الشاب وقوافيه بين العربيّة والفارسيّة والتركيّة، وهي التفاتة لا نجدها عند باحث غيره، حيث نشر عزّام في مجلّة (كليّة الآداب) الصادرة عن (الجامعة المصريّة) بحثًا عن هذا الموضوع (في المجلّد الأوّل، مايو/أيّار ١٩٣٣) فالمقال يؤكّد «وعيه المقارني، وإن لم يشرحه أو يفصح عنه في أيّ من بحوثه وأعماله، وهي أنّ ما بين الأوزان والقوافي العربيّة والفارسيّة من فروقات يرجع إلى تفاعلات العمق التأثيريّ وليس إلى اختلاف طبائع الأمّتين من اختلاف، ولا يمكن الفصل في هذه المسألة إلّا بعد بحث مفصّل في أوزان الشعر العربيّ وعلاقاتها بكلمات العربيّة،

وفي تطوّر الأوزان العربيّة في الشعر الفارسيّ، وتبيّن ما بين هذا التطوّر ولغة الفرس من صلة، وبعد بحث طويل شاقّ لم تتهيّأ وسائله» (بكّار، ٢٠١٩: ص٦١-٦٢).

لكنّ عزّامًا بذل من الجهد المفصّل ما ينمّ عن تعمّق في أوزان الفنّ الشعريّ وقوافيه لدى الأمم الإسلاميّة.

٣- العلائق الأدبيّة بين العربيّة والفارسيّة.

انشغل عزّام كثيرًا بهذه العلائق، فقد ذكرت في غير موضع أنّ هذا الانشغال يمثّل صلبَ مشروعه الحضاريّ، لذلك تعدّدت جولاته ومداخله في هذا الإطار، فتناول أبرز أعلام الثقافة والأدب في أعمال كاملة متكاملة، كما هي الحال في أعماله حول (الشهنامة) و(فريد الدين العطّار) و(محمّد إقبال) وغيرهم، كما تناول ظواهر موضوعات أدبيّة متفرّقة، وقد كان كاتبًا وناقدًا منتظمًا وشبه منتظم في العديد من المجلّات والدوريّات الأدبيّة آنذاك (منها الرسالة، والثقافة، وكليّة الآداب، والهلال، والمجمع، والكتاب.. وغيرها)

ولا يكاد يخلو كتابٌ من كتبه، أو محاضرة من محاضراته عن حديث في هذا الشأن، وحتّى المؤتمرات التي شارك فيها، فقد كانت منصبّة في هذا الاتجاه أيضًا.

فقد تناول في مقالاته، كما في كتبه، أعلامًا مهمّين من أعلام الثقافة والأدب لدى الفرس، فكتب في مجلّة الثقافة مقالًا عن (سعدي الشيرازيّ (ت٦٩١هـ) (العدد ١٤، مارس، ١٩٣٩) تحدّث فيه عن حياته وشعره ومؤلّفاته، وترجم له بعض أشعاره، مؤكّدًا على نزعته الأخلاقيّة، ودعوته إلى العدل والمرحمة وتحذيره من الظلم وعواقبه. وكتب عن شاعر آخر في المجلّة نفسها (العدد، ٢١ مارس ١٩٣٩) وهو عبيد الزاكاني (ت ٧٥٨هـ) ودرس مؤلّفاته الشعريّة والنثريّة. ودرس أديبًا آخر هو (رشيد الدين العمري الوطواط) في مجلّة الثقافة (العدد ١٨ يوليو ١٩٣٩) والعدد (٨ أغسطس ١٩٣٩) تحدّث في المقالَين عن مؤلّفاته ونزعته الساخرة. وفي المقال الأوّل تحدّث عزّام عن الشاعر (الجامي) وعصره ومؤلّفاته.

لقد تحدّث عزّام في مقالات له بمجلة الثقافة عن (مكانة الأدب العربيّ بين آداب

الأمم) ١٩٤٢، تجاوز فيه علاقة العربيّ بالأدبَين الفارسيّ والتركيّ إلى الأدب العالميّ، قديمًا وحديثًا مبيّنًا الفرق بين تعامل الشعر العربيّ الحديث مع تراثه، وتعامل الشاعر الأوروبيّ مع تراثه بالجهة المقابلة، وفي هذه المقالات الخمس جولة علميّة دقيقة للعلاقات الأدبيّة، وقضايا التأثّر والتأثير بين أدبنا العربيّ وآداب الأمم الأخرى، وهو في هذا الاتجاه لا يتورّع أن ينتقد شعرنا العربيّ فيقول: «ممّا يؤخذ على الشعر العربيّ أنّه شغل بالمدائح قرونًا طويلة وهي ضرب من الكذب والغلوّ لا يبين عن حقيقة ولا عاطفة، ونحن لا ريب نعترف بهذا، ولكن ينبغي ألّا نغفل عمّا في المدائح من فنون غير المدح» (عزّام، ١٩٤٢، مكانة الأدب العربي: ص٢٠٧).

٤- العلائق الأدبيّة بين العربيّة والتركيّة.

ذكرت الدراسة سابقًا أنّ اهتمام عزّام بالتركيّة والأرديّة راجع إلى تأثير الفارسيّة لغةً وثقافةً على هاتَين اللغتَين، وقربهما جغرافيًّا من إيران. والأهمّ من هذا وذاك أنّ العناية بهما وبثقافتهما تكمّل (مشروع عبد الوهّاب عزّام الحضاريّ)، الذي كان البحث عن ملامحه وحدوده وآفاقه هو هدف هذه الدراسة الجوهريّ.

«فقد خلّف عزام في التركيّة وآدابها آثارًا قيّمة (بحوثًا ومقالات وترجمات) في موضوعات مختلفة، ناهيك برحلاته إلى الديار التركيّة (١٩٢٩-١٩٣٧) كما هي رحلاته إلى البلاد الإسلاميّة الأخرى، تكميلًا للغاية التي كان ينشدها من التعرف على أحوالها لكي تمكّنه من درك ما كان ينبغي من الوقوف على ثقافاتها» (الخشّاب، ١٩٦٢: ص٦٤٩).

نشر عزام أولى مقالاته عن الأدب التركيّ في الرسالة (ع٩، ١٥مايو، ١٩٣٣، ص٢٩) بعنوان (الزامر الأعمى) يقول فيها «جلست إلى دواوين الشعر التركيّ أقلّب الأجيال بين يدي: أطالع مرّة وجه (نجاتي) و(ذاتي) وأنظر أخرى إلى (باقي) و(نفعي) وثالثة أرى (نديما) و (راغب باشا) و (الشيخ غالب) ثمّ أعمد إلى العصور الأخيرة فإذا (أساسي) و(نامق كمال) و (ضياء باشا) و (توفيق فكرت) و (عبد الحق حامد) وغير هؤلاء. وبينا أطوي العصور باللمحات، وأقلّب الأجيال بالصفحات بصرت بـــ (الصفحات) ديوان

الشاعر الكبير صديقي الكريم (محمّد بك عاكف) فسارعت إلى الجزء الأوّل، فانفتح عن قطعة عنوانها (الزامر الأعمى) فقرأتها، ثمّ عمدت إلى القلم فترجمتها (نثرًا) إذ ضاق الوقت دون نظمها» (عزّام، ١٩٣٣: ص٢٩).

وقدّمها لقرّاء الرسالة كما أشار، ويبدو من المقدّمة السابقة أنّ معرفة عزّام بأعلام الأدب التركيّ واضحة جليّة، ولعلّ هذه المقالة فاتحة مقالات وكتب وعلاقات لاحقة بأدب الأتراك وثقافتهم، عُنِيَ بها عزّام عناية لا تقلّ كثيرًا عن عنايته بالأدب الفارسيّ والثقافة الفارسيّة.

تعرّف عزام إلى (شاعر الإسلام محمّد عاكف) عندما كان مقيمًا في مصر ليتفرّغ لكتابة نشيد الاستقلال، وأتى به إلى الجامعة المصريّة ليعلّم التركيّة فيها، وكان من أصدقائه المقرّبين.

يشير يوسف بكّار إلى أنّ عزامًا كتبَ عن عاكف بعد وفاته بسنة «أربعة مقالات تحت عنوان (شاعر الإسلام محمّد عاكف) الأوّل، عرض فيه كيف تعرّف إليه تعرفًا تحوّل إلى صداقة عميقة آلت إلى زيارات ولقاءات ومجالس علم وقراءات في اللغات الثلاث (العربيّة و الفارسيّة والتركيّة) وفي شعره وشعر شاعر باكستان الشهير محمّد إقبال. والثاني قصره على ترجمة مقال أيّام عاكف الأخيرة، لصهره (عمر رضا) الذي تحدّث فيه عن مرضه، وكشف عن أنّه لما طُلب إليه أن يترجم القرآن الكريم بالتركيّة اعتذر إجلالًا للقران؛ لأنّ ليس ثمّة من يستطيع أن يترجمه على ما هو جدير به، بيد أنّه أذعن كارهًا وترجمه، وحين رغب أن ينشر تفسيرات في الحاشية مع الترجمة رفضت الحكومة، امتنع عن إعطائهم الترجمة. فأمّا الثالث، فعرض فيه لمعًا من سيرته، وركّز على أهميّته في الأدب التركيّ. أمّا الأخير، فجعله لشعره من خلال ديوانه الكبير (الصفحات)» (بكّار، ٢٠١٩: ص ٨٢-٨٣).

وبعد ذلك توالت جهوده في الأدب التركيّ والثقافة التركيّة ينقلهما إلى قرّاء العربيّة أوّلًا، ثمّ يوضح ما في ثقافة الأتراك وحضارتهم من توجّهات روحيّة ودينيّة تنسجم مع روح الإسلام وحضارته، وتستحقّ أن تكون جزءًا من (المشروع الحضاريّ العام) الذي يؤسّس له

عزّام عبر دراسات وبحوث شموليّة ومعمّقة في ثقافات المشرق الإسلاميّ وآدابه.

وعلى صفحات الرسالة (ع١٠، ١٩٣٣، ص٢٣) ترجم للشاعر إسماعيل صفا ثلاثة نصوص بعنوان (من الشعر التركيّ الحديث/ الأدب الشرقيّ) وفي (ع ١١، ١٩٣٣) كتب مقالته عن (نامق كمال) «أبو الأدب التركيّ الحديث الذي نزل من أفكار الترك وقلوبهم منزلةً لن ينزلها غيره، والذي لا تزال آثاره مدوّنة في التاريخ التركيّ الحديث..» (عزّام، ١٩٣٣: ص٢٧) وكتب أو ترجم لكلّ من:

- عبد الحق حامد (١٨٥٢ – ١٩٣٧م)
- أحمد حكمت بيك (١٨٧٠ -١٩٢٧)
- جناب شهاب الدين (١٨٧٠ - ١٩٣٤)

وقد عُنِيَ عزام بموضوع (النهضة التركيّة) وكتب عنها سبعة مقالات في مجلّة الرسالة (١٩٣٥) ففي العدد (١٠١) يقول: «وجّهت إحدى المجلّات الكبيرة في مصر إلى بعض الكتّاب هذا السؤال: إلى أيّ حدّ يجب الاقتداء بتركيا في نواحي نهضتها الأخيرة؟ فحفّزني هذا إلى الكتابة بموضوع تجنّبتُه زمنًا طويلًا، لا استهانة به فهو جدّ خطير، ولكن إشفاقًا ممّا يثور بالنفس حين تعالجه» (عزّام، ١٩٣٥ الرسالة، ص٩٤١).

ولا شكّ في أنّ هذه المقالات مجموعة قد تؤلّف كتابًا مستقلًّا في الموضوع، وهي إن دلّت على شيء فإنّما تدلّ على وعي عزّام بضرورة أن تكون هذه النهضة التركيّة جزءًا من نهضة الحضارة الإسلاميّة في العصر الحديث.

وقد ترجم عزّام كتاب (اتحاد المسلمين: نظرات في مدينة العالم). فهذا الكتاب ترجمه عزّام لما فيه من توافق مع أفكار، بل مشروعه الأمميّ الحضاريّ، وقد عرفنا أنّ عزّامًا كان يرأس جمعيّة (الأخوّة الإسلاميّة) التي تطمح إلى توحيد الشعوب والأمم الإسلاميّة تحت حضارة واحدة عظمى، لها امتداداها التاريخيّة المتجذّرة في الزمن، وذات طموح نهوضي متطلّع إلى التقدّم والتحضّر، من دون انزواء أو انعزال، بل كثيرًا ما كان يدعو إلى الإفادة من تجارب الأمم الناجحة في مسيرة النهضة والتحضّر؛ لأنّه كان يؤمن أنّ الثقافة الإسلاميّة لم تنهض على العربيّة وحدها، إنّما على الفارسيّة والتركيّة

كذلك، وأنّ مَن يريد أن يلمّ بهذه الثقافة (الإسلاميّة) إلمامًا صحيحًا عليه أن يقرأ ما كتب عنها باللغات الثلاث (بكّار، جريدة الرأي، ٢٠١٣، جهود عزام في التركيه وآدابها) وقد أشرف عزّام على العديد من الأطروحات في أدب الأتراك وثقافتهم، منها أطروحة دكتوراه لحسين مجيب المصريّ، وعنوانها (فضولي البغداديّ أمير الشعر التركيّ القديم).

وعلى الرغم من عنايته الفائقة بالجانب الأدبيّ في الثقافة التركيّة إلّا أنّه لم يهمل (الجانب اللغويّ) «فقد بيّن في بحثه (صلات اللغة العربيّة واللغات الإسلاميّة الفارسيّة والتركيّة والأرديّة) وهو يتحدّث عن اللغة التركيّة في فروعها الشرقيّة والغربيّة، أنّ اللغة العربيّة كانت لغة التأليف في العلم والأدب إلّا قليلًا في تركستان الشرقيّة والغربيّة... أمّا التركيّة فأضحت لغة أدبيّة في بعض أقطارها في عصور متأخّرة حين عرفت محاولات للكتابة بها بلهجات مختلفة منذ القرن الخامس الهجريّ، كان أهمّها منظومات (علي شير نوائي) و(بابرنامه) لمحمّد ظهير بابر. ولمـّا قامت الدولة العثمانيّة جعلت تستعمل التركيّة في رسائلها جنبًا إلى جنب مع الفارسيّة والعربيّة... تحوّل عبد الوهّاب عزّام بعد ما تقدّم إلى موضوعة الألفاظ العربيّة في اللغات الإسلاميّة... وعرج عزّام على اقتراض العربيّة من التركيّة والأخذ منها، مكتفيًا بما تسرّب إلى اللهجة المصريّة تمثيلًا لا تفصيلًا في عهد المماليك والحكم العثمانيّ» (م.ن: ص١١).

جهوده في الأدب الأردنّ في الهند وباكستان

بطبيعة الحال كان اهتمام عزّام بشاعر باكستان العظيم (محمّد إقبال) اهتمامًا عزّ نظيره، وقد سبق الحديث عنه في مجال اهتمامات عزّام بالفارسيّة وآدابها. أمّا اهتماماته الأخرى بهذه الثقافة، فربّما كانت أقلّ حجمًا من انشغالاته بالفارسيّة والتركيّة، ومع ذلك فهي اهتمامات وانشغالات تصبّ في (مشروعه الحضاريّ الأمميّ) العام.

حين كتب عزّام أولى مقالاته عن (محمّد إقبال) سمّاها (صفحات من الشعر الهنديّ) ونشرها في (الرسالة س١،ع١، ١٩٣٣) وعندما كرّر الكتابة عنه وضعه تحت الأدب الهنديّ) ويسمّيه في بعض مقالاته (شاعر الهند) ثمّ كتب عن (جلال الدين

منكبرتي) ومعاركه مع أعداء الإسلام على نهر السند، وفي السنة الثالثة للرسالة يكتب عزّام (عن مقطوعات من الأدب الهنديّ والأدب الفارسيّ).

ويترجم لعبّاس إقبال مقالة (بين القاضي منصور الهرويّ والوزير أبي سهل الزوزنيّ)، ويتحدّث عن (زواج أمير عربيّ بأميرة هنديّة) وغير ذلك من مقالات.

ولم يترك عزّام اهتمامه بالثقافة الهنديّة طيلة مسيرة كتابته في الرسالة والثقافة وغيرهما، ففي السنة الخامسة عشرة للرسالة، ينشر (الإسلام في الهند) وينشر عدّة مقالات بعنوان (رحلة في الهند) و (من آثار الإسلام في الهند) و (من الأدب الهنديّ الإسلاميّ) بل إنّه يذهب الى الدول البلغار ليكتب مقالَين بعنوان (البلغار المسلمون: صفحات مطويّة من التاريخ الإسلاميّ)... كلّ ذلك بوعي عميق منه لأهميّة لملمة أطراف الحضارة الإسلاميّة التي تكوّن (مشروعه الحضاريّ).

في مقالته الإسلام في الهند، يشرح كيف مرّ المدّ الإسلاميّ من (إيران) إلى (أفغانستان) إلى (الهند) موضحًا كيف (كانت الدول الإسلاميّة في الهند خيرًا لها وسعادة، جلبت إليها حضارات مختلفة، حضارات العرب والفرس والترك وحضارات أخرى أخذتها هذه الأمم عن غيرها... كانت الدول الإسلاميّة قائمة بعدل الإسلام، رافعة راية الأخوّة بين البشر، والحريّة للناس جميعًا بين أمم فيها العابد والمعبود، والمقدّس والمنبوذ، والطاهر والنجس، وفيها السيّد والعبد، والعزيز والذليل، وكانت داعية الى التوحيد الخالص في بلاد تزدحم فيها الأوثان والخرافات والأوهام... وعملت ما عمله المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها من علوم وآداب وفنون وصناعات حتّى لقد علّموا تفصيل الثياب وخياطتها، ولم يكن أهل البلاد بها عارفين، لقد عرّفوا الإنسان، كرامة الإنسان، وحرّروا العقول من الأباطيل.. وسجّلوا على التاريخ مآثر لا يزال يردّدها مأثورة مشكورة» (عزّام، الرسالة، العدد ٧٠٥) فهو هنا مهتمّ بما حقّقته الحضارة الإسلاميّة من العرب والفرس والترك) لسكّان الهند من رقيّ وتقدّم في النواحي الماديّة والمعنويّة، حيث سبّب المدّ الإسلاميّ في الهند لهذه البلاد نهضة وحضارة وعمرانًا لا تزال آثارها حتى الآن.

وحتى يقدّم صورة أعمق أثرًا، وأكثر إيضاحًا نجده في عدّة مقالات عن (رحلة إلى

الهند) بلغت ستة عشر مقالًا يوضح فيها أولى أولى مقالاته كيف « كان السفر إلى الهند أمنيةً تطاول عليها الزمان... وكان شوقي إلى الهند يزداد كلما زادت معرفتي بها، والتقائي بأهلها، واطلاعي على لغاتها وآدابها» (عزّام، رحلة الى الهند، ١) وفي الرحلة الثامنة عشرة على سبيل المثال يتحدّث عن زيارته لضريح (محمّد إقبال) وموقع الضريح في الحديقة المحيطة بالجامع الكبير الذي بناه السلطان (محيي الدين أورنك) وألقيت الكلمة الآتية: «إقبال، يا شاعر الإسلام، أنرتَ مقاصده وجلوتَ فضائله، وأضأت سراجَه وأوضحتَ مناهجه. إقبال يا شاعر الشرق،... إقبال يا شاعر الحياة - إقبال يا شاعر النفس.. إقبال، يا شاعر الحريّة..» (عزّام، رحلة إلى الهند، ١٨) فهو في هذه القطعة الأدبيّة يجلو لنا ملامح شخصيّة إقبال، ويقدّم ملخصًا مكثفًا لأهميّته، ليس في أدب الهند وحسب، وإنّما في أدب الحضارة الإسلاميّة والإنسانيّة جمعاء. ولا شكّ في أنّ رحلته هذه الى الهند، بفصولها وحلقاتها بحاجة إلى دراسة مستقلّة مستفيضة تبيّن أهميّتها الأدبيّة، وقيمتها في جانب المثاقفة بين الأمم والشعوب عبر أدب مهمّ جدًّا في الدراسات المقارنة، ألا وهو (أدب الرحلات).

خاتمة

وفي ختام هذه الدراسة، اتضح لي أنّ عبد الوهّاب عزّام امتداد خلّاق لرواد نهضتنا وصنّاع الثقافة العربيّة الحديثة المؤسّسين، كشوقي، وحافظ، والبارودي، وروحي الخالدي، ومصطفى عبد الرزاق، وطه حسين، وأحمد أمين، وأحمد حسن الزيّات، وسهير القلماوي، وعائشة عبد الرحمن، وزكي نجيب محمود، وقسطاكي الحمصي، ومحمّد غنيمي هلال، والزهاوي، وأحمد زكي أبو شادي، والعقّاد ،...وغيرهم. فعبد الوهّاب عزّام وريث حقيقيّ لثقافة أصيلة، وفكر واع، عبر تلمذته على أيدي عدد من هؤلاء، وزمالته لمعظمهم. وقد حرص على أن يجمع في هذه الثقافة وذلك الفكر أصالةَ الماضي بما فيه من مرجعيّات أدبيّة وفكريّة فذّة، وحصون ثقافيّة منيعة، جنبًا إلى جنب وانفتاح الحاضر بما يمثّله من أشواق إلى التقدّم وتلهّف إلى الاطّلاع على تجارب الأمم الثقافيّة ونتاجها الحضاريّ.

كما أتقن عزّام صناعة التحقيق فأخرج لنا أعمالًا – على قلّة عددها – غدت مضربَ المثل عند عمالقة النهضة الثقافيّة، ولدى المتخصّصين في مجال التحقيق ممّن جاؤوا بعدهم. ولعزّام كذلك جهود مهمّة جدًّا في الترجمة، ولا سيّما ترجمة أعمال أدبيّة وثقافيّة غاية في الصعوبة والقيمة الفنيّة والحضاريّة، نقلها لنا بروحه المبدعة، وخبرته النادرة، حيث أظهرت الدراسة كيف ترجم عزّام روائع أدب شاعر الهند والباكستان العظيم (محمّد إقبال) .. وتأثّر به فنظم شعرًا عميق المعنى، راسخ الجذور.. بذر في ثقافتنا العربيّة نماذج غاية في الإمتاع، والتركيز على قيم الخير والحقّ والجمال.. فكان أديبًا عربيًّا مجدّدًا، وناقدًا جادًّا، استحقّ بسبب كلّ ما سبق أن يكون مؤسّسًا لـ (مشروع ثقافيّ حضاريّ) يمثّل حضارة الإسلام التي فهمها عزّام على أنّها الحضارة التي مدّت أذرعها من قلب جزيرة العرب لتصل إلى حضارات الأمم الأخرى في بلاد فارس إيران، التي أبدع أبناؤها تحت مظلّة الحضارة العربيّة الإسلاميّة منجزات علميّة وثقافيّة مذهلة، كما تتبّع عزّام هذه الأذرع في ثقافات الأمم الإسلاميّة من الساميّين والأتراك وصولًا إلى الهند والباكستان، بل مضى يكتب أيضًا عن شعوب أخرى قلّ من اعتنى بهم، وبأثر الحضارة العربيّة الإسلاميّة في ثقافاتهم، فكتب عن البلغار المسلمين كصفحات مطويّة من التاريخ كما سمّاها.

وربما لو قدّر له الحياة أعوامًا أخرى لذهب يفتّش عن تعالق الثقافة الإسلاميّة بثقافات الشعوب التي أسلمت في الشرق الأقصى، كالصين واليابان وكوريا، فضلًا عن ماليزيا وإندونيسيا والفلبين وتايوان وغيرها ...فما أنجزته الحضارة الإسلاميّة لدى هذه الشعوب سيكون جزءًا لا يتجزّأ من مشروعه الحضاريّ من دون شكّ.

ترك عبد الوهّاب عزّام إرثًا أدبيًّا وفكريًّا ونقديًّا عظيمًا، تمّت دراسة بعض جوانبه، والتفت إلى بعض جوانب هذا الإرث عدد قليل من أفاضل الأساتذة، لكنّ مشروعه الحضاريّ الكليّ لم يوف حقّه من البحث والدراسة والتحليل، فقد بدا عزام من (الريادات المنسيّة) كما جاء في كتاب الدكتور يوسف بكّار، الذي يستثير الباحثين لاكتشاف هذه الريادات، كعبد الوهّاب عزّام وغيره ... وقد آن الأوان لأن نُجري المزيد

من البحوث والدراسات حول أعمال عزّام، عساه ينال مكانته الحقيقيّة التي يستحقّها في ثقافتنا المعاصرة. وأرجو أن تكون هذه الدراسة قد حقّقت لعزام شيئًا من هذه المكانة ...سائلًا الله سبحانه دوامَ الرشاد والتوفيق والسداد.

المصادر والمراجع

- أنجم، سلمى، (٢٠١٧)، **من تأثيرات إقبال في نجيب الكيلاني**، مجلّة الدراسات الإسلاميّة والدينيّة، باكستان، ج ٢، العدد١.
- بكّار، يوسف، (٢٠٢٢)، **جدليّة الذات والآخر: المثاقفة تبعيّة أم توازن**، ضمن: عين الشمس: مقاربات في النقد ونقد النقد، عمان، دار فضاءات.
- بكّار، يوسف، (٢٠١٩)، **ريادات منسيّة في الأدب العربيّ المقارن**، عمان، الدار الأهليّة للنشر والتوزيع.
- بكّار، يوسف، (٢٠٠٠)، **نحن وتراث فارس**، دمشق، المستشاريّة الثقافيّة للجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة.
- بكّار، يوسف، (٢٠٠٩)، **من مفارقات الاقتراض اللغويّ بين العربيّ والفارسيّة**، لبنان، مجلّة الدراسات الأدبيّة، مج ٤٠، العدد ٨٦.
- البيومي، محمّد رجب، (١٩٩٥)، **النهضة الإسلاميّة في سيَر أعلامها المعاصرين**، دمشق، دار القلم.
- الجميل، سيار، (١٩٩٧)، **تكوين العرب الحديث**، ط١، دار الشروق عمان - الأردن، دار الشروق.
- الخشّاب، يحيى، (١٩٦٢)، **المرحوم عبد الوهّاب عزّام**، القاهرة، مجلّة مجمع اللغة العربيّة، ج١٤.
- الزيّات، أحمد حسن، (١٩٥٣)، **رحلات عبد الوهّاب عزّام**، مجلّة الرسالة، العدد ٩٣٢.
- الشواربي، إبراهيم، (١٩٩٤)، **حافظ الشيرازيّ: شاعر الغناء والغزل في إيران**، القاهرة، دار المعارف.

- طلعت أبو فرحة، (١٩٧٥)، **جوانب من الصلات الثقافيّة بين مصر وإيران**، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر.
- عبّاس، عبّاس عبد الحليم، (٢٠١١)، **جماليّات الاستفهام في شعر عرار**، عمان،جريدة الدستور، العدد ١٠/أكتوبر.
- عبّاس، عبّاس عبد الحليم، (٢٠١٧)، **خطاب المثاقفة وحوار الحضارات: قرن من الدراسات الأدبيّة والنقديّة العربيّة المقارنة** (النوافذ المشرعة)، عمان، الأكاديميّون للنشر والتوزيع.
- عبّاس، عبّاس عبد الحليم، (٢٠١٦)، **شعريّة النصّ عند يوسف العظم**، عمان، وزارة الثقافة.
- عزّام، عبد الوهّاب، (١٩٩٥)، **اتحاد المسلمين**، (مترجم) موقع: أرشيف الإسلام.
- عزّام، عبد الوهّاب، (١٩٣٧)، **أخلاق القرآن**، مصر، مكتبة النور.
-عزّام، عبد الوهّاب، (٢٠١٢)، **الأوابد**، ط٢، القاهرة، مؤسّسة هنداوي للتعليم والثقافة.
- عزّام، عبد الوهّاب، (١٩٤٩)، **أمم حائرة**، موقع أرشيف الإسلام.
- عزّام، عبد الوهّاب، (٢٠١٢)، **بيام مشرق لمحمّد إقبال**، ط٢، القاهرة، مؤسّسة هنداوي للتعليم والثقافة.
- عزّام، عبد الوهّاب، (١٩٤٦)، **تاريخ إيران في عهد الساسانيين**، آرثر كريستنسن، (مراجعة عزّام) مصر، دار المعارف.
- عزّام، عبد الوهّاب، (٢٠١٢)، **التصوّف وفريد الدين العطّار**، ط٢، القاهرة، مؤسّسة هنداوي للتعليم والثقافة.
- عزّام، عبد الوهّاب، (١٩٤٤)، **ديوان أبي الطيب المتنبي**، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- عزّام، عبد الوهّاب، (١٩٥٣)، **ديوان الأسرار والرموز**، مصر، مكتبة النور.
- عزّام، عبد الوهّاب، (٢٠١٧)، **ديوان المثاني**، ط٢، مصر، مؤسّسة هنداوي للتعليم

والثقافة.
- عزّام، عبد الوهّاب، (٢٠١٢)، **ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام**، ط٢، القاهرة، مؤسّسة هنداوي للتعليم والثقافة.
- عزّام، عبد الوهّاب، (١٩٣٩)، **رحلات عبد الوهّاب عزّام**، القاهرة، مؤسّسة الرسالة.
- عزّام، عبد الوهّاب، (١٩٣٩)، **رضا شاه بهلوي: نهضة إيران الحديثة**، (تحقيق) موقع أرشيف الإسلام.
- عزّام، عبد الوهاب، (١٩٤٨)، **الصلات بين العرب والفرس وآدابهما في الجاهليّة والإسلام**، القاهرة، دار المعارف.
- عزّام، عبد الوهّاب، (٢٠١٧)، **ضرب الكليم**، ط٢، القاهرة، مؤسّسة هنداوي للتعليم والثقافة.
- عزّام، عبد الوهاب، (٢٠١٧)، **فصول من المثنوي لجلال الدين الرومي**، ط٢، القاهرة، مؤسّسة هنداوي للتعليم والثقافة.
- عزّام، عبد الوهّاب، (٢٠١٧)، **قانون جماعة الأخوّة الإسلاميّة**، القاهرة، مطبعة فتى النيل.
- عزّام، عبد الوهّاب، (٢٠١٢)، **كليلة ودمنة**، ط٢، القاهرة، مؤسّسة هنداوي للتعليم والثقافة.
- عزّام، عبد الوهّاب، (١٩٤٩)، **مجمع النوادر: جهار مقالة**، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- عزّام، عبد الوهّاب، (٢٠١٢)، **محمّد إقبال: سيرته وفلسفته وشعره**، ط٢، القاهرة، مؤسّسة هنداوي للتعليم والثقافة.
- عزّام، عبد الوهّاب، (٢٠١٧)، **المعتمد بن عباد**، ط٢، القاهرة، مؤسّسة هنداوي للتعليم والثقافة.
- عزّام، عبد الوهّاب، (٢٠١٢)، **مهد العرب**، القاهرة، ط٢، القاهرة، مؤسّسة هنداوي للتعليم والثقافة.

- كفافي، محمد، (١٩٦٦)، **مثنوي جلال الدين الرومي شاعر الصوفيّة الأكبر**، (مترجم) بيروت، المكتبة العصريّة.
- الكيلاني، نجيب، (١٩٨٥)، **رحلتي مع الأدب الإسلاميّ**، بيروت، مؤسّسة الرسالة.
- المحاسني، محمّد زكي، (١٩٦٨)، **عبد الوهاب عزّام في آثاره وحياته الأدبيّة**، القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربيّة.